وَطَنٌ عَكِر

من السلك العسكري إلى الهروب من سجون البحرين

عبدالله عبد الجليل

وَطَنٌ عَكِر

من السلك العسكري إلى الهروب من سجون البحرين

صحيفة إلكترونية مستقلة تعنى بالشأن البحريني

اسم الكتاب: وطنٌ عَكِر، من السّلك العسكري إلى الهروب من سجون البحرين

اسم المؤلف: عبد الله عبد الجليل

الطبعة الأولى، بيروت، 2020م - 1441هـ

www.bhmirror.no-ip.org | www.bahrainmirror.com
editor@bahrainmirror.com | info@bahrainmirror.com

وَطَنٌ عَكِر

من السلك العسكري إلى الهروب من سجون البحرين

عبد الله عبد الجليل

(1)

مندهشًا بما حولي، كنت في العام 1996 ألملم حقيبتي المدرسيّة مستعدّاً للالتحاق بصفّي في السنة الدراسيّة الأولى، لا زلت أتذكّر ملامح وجه أمي وهي تُعدُّ الإفطار وتُعلِّب لي وصاياها في أكياسٍ شفّافة مثل قلبها الأبيض، لا زال ذلك اليوم الأول من حياتي الدراسيّة يذهب في عقلي ويأتي مثل ومضةٍ حمراء بعيدة، تنطفىء وتخبو، لكنّها عندما تبرق فإنّها تُثيرُ الدهشة.

كنتُ أهرول إلى خارج منزل جدّي العتيد بينما تحفّني وصايا أمي ودخان بخّورها بهالةٍ تُسنّدني أمام العالم، كشخصٍ واثقٍ من نفسه أمام الآخرين أنّ لديه أم، لن تنساه من الدعاء والأحراز والأمنيات.

في الخارج ليس كما الداخل، أو هكذا تكون فطرة الطفل عندما يخطو خارج أعتاب منزله، تبدو الأشياء مدهشة وكبيرة، تقلُّ دهشتنا أمامها، ويتضاءل حجمها كلّما كبرنا، وتذبلُ في الذاكرة، لكنّها لا تغيب أبداً، هكذا أتذكّر جدار منزل جارنا المُعدم المملوء بالنتوءات والشقوق، أعلى السور الرفيع

كُتِبَت عبارة «البرلمان هو الحلّ» بخطٍّ متعرّج، تحتها بقليلٍ، كُتِبَ بلونٍ أسود «الجمريُّ عمري». وعندما سألتُ عمّي عنها، قال إنّ الجمري[1] هو قائد الشعب وإنّه لا يعرف من هو البرلمان.

حينها، ظلَّ البرلمان سؤالاً يراودني، من هو؟ ولماذا لا يخلو جدارٌ في حيّنا من اسمه؟ وعندما لم أحصل على الإجابة بقيتُ كل يومٍ أتهجّأ حروف البرلمان بين أزقّةِ قريتنا «العكر»، تلك التي كانت عَكِرَةً على الظالمين، مثل شيءٍ لا يُمكن أن يطيب لهم.

وبينما كنتُ أتعثّرُ بأحلامي كلّ يوم، ذهاباً إلى المدرسة[2] وإياباً منها، كانت الأجـواء السياسيّة ملبّدة بغيوم الدماء

(1) هو الشيخ عبد الأمير الجمري (1937 ـ 18 ديسمبر/ كانون الأول 2006)، رجل دين شيعي كبير بالبحرين، درس في حوزة النجف بالعراق من العام 1969 وحتى العام 1973، ثم عاد لينتخب نائباً في المجلس الوطني، وكان أول برلمان منتخب في البحرين. وفي الفترة من العام 1977 حتى 1988، عمل قاضياً في المحكمة الجعفرية البحرينية، حتى فصل منها. كان أحد أبرز قادة المطالبين بعودة الحياة النيابية في الانتفاضة التسعينية، إذ كان في العام 1992 عضواً في لجنة العريضة الشعبية المطالبة بعودتها «الحياة النيابية»، والتي ضمت شخصيات معارضة يسارية منها: الجبهة الشعبية في البحرين، جبهة التحرير الوطني، وإسلاميون سنة. في أعقاب الاضطرابات في التسعينيات، تم اعتقاله لمدة خمسة أشهر. اعتقل مرة أخرى في يناير 1996 ليحكم عليه بالسجن 15 عاماً مع غرامة 15 مليون دينار بحريني. وقد أطلق سراحه في يوليو/ تموز 1999 بعد تولي ملك البحرين حمد بن عيسى آل خليفة، إلا أنه ظل رهن الإقامة الجبرية بمنزله حتى 2001. في منتصف مايو/ أيار 2002، أصيب بجلطة، واضطر لمغادرة البلاد إلى ألمانيا ومن ثم السعودية للعلاج، ثم عاد إلى البحرين يوم السبت الموافق 12 يوليو/ تموز 2003، وظل طريح الفراش حتى يوم وفاته في 18 ديسمبر/ كانون الأول 2006، وتم تشييعه في موكب مهيب إلى مقبرة بني جمرة في اليوم ذاته.

(2) كان الراوي تلميذًا في مدرسة المعامير الابتدائية للبنين.

الزاكيات، عيسى قمبر لم يُعدم بعد، لكنَ كلَّ شيءٍ يشي بأنَّ دماءه ستطهِّر الأرض، مثل شيءٍ لا بدّ منه، كما هو القطاف الذي يحين حينه.

لم أكن أعرف عيسى قمبر[1]، لكنَّ صوره المطبوعة على جدران حيّنا لا زالت في ذاكرتي، الفرق الوحيد أنّها أُزيلت من على الجدران الآن، لكنّها لم تُمحَ من قلب الطفل الحائر، ذلك الذي بقي في «تنّور» التسعينيات حتى نضج!

كانت الضحكات تتعالى عندما دخلت إلى منزل جدّي المتهالك، أخطو على تراب فنائه بهدوءٍ كمن يعرف أنّه تحفة، اجتماع الأهل لم يمنعني من السؤال عمّن يكون البرلمان هذا، لكنّ أحداً لم يتعاطَ معي بجديّة، فكلّهم كما يبدو يعتبرون صغر سنّي لا يتناسب مع هذا السؤال الآن، عمتي، صاحبة المشمر الأصفر[2] ذي الخطوط السوداء، الذي يبدو كجلد نمر، تدخل الفناء بإناء الشاي، أصوات «استكانات» الشاي أثناء مشيها تصدر صوتها المعروف وتختلط مع أصوات الأحاديث الممتعة، كل هذا المشهد لا يشدّني في شيء، فإصرار الطفل في داخلي لا يبارح مكانه، من هو البرلمان؟

---

(1) الشهيد عيسى قمبر: هو وجه من وجوه الثورة في البحرين، وأحد أشهر شهداء انتفاضة الكرامة في تسعينيات القرن الماضي. أعدمته السّلطات البحرينية في 26 مارس/ آذار 1996 بتهمة قتل أحد أفراد جهاز أمن الدولة. شكّل تنفيذ حكم الإعدام بحقه تحديًا للشّعار الذي كان يملأ المنازل في تلك الفترة: «قسمًا قسمًا... عيسى قمبر إن أُعدِم ... تجري أنهار من دم».

(2) المشمر لباس تقليدي في البحرين، ترتديه النساء عند خروجهن من المنزل لستر أجسامهن وملابسهن.

عمة فضيلة، من هو البرلمان؟ تضحك عمتي فضيلة فتظهر غمازتيها على خدّيها الأجردَين بينما تجلسني إلى الأرض، تقرّبني عمتي من جانبها الأيمن وتقبلني، تبدو من خلال مداعبتها لي أنّها لا تريد الرد على سؤالي، لكنّها بعد ذلك تقول: هو مكان يجتمع فيه من ينتخبهم الناس ويقرّرون فيه مصير الناس، لم أفهم ما قالت، وشعرت أنّه لا فائدة من تكرار سؤالي.

توالت الأيّام الحائرة، وظلّ البرلمان يؤرق طفل التسعينيات الحالم، ولكثرة ما رأى الجدران والألسن تلهج باسمه اعتقد أنّه شخصيّة مقدّسة يريد الناس تحريرها من السجن!

في الفناء ذاته في منزل جدّي، كان الأهل يجتمعون لتجهيز «وليمة البركة» لتوزيعها على المعزّين بذكرى استشهاد أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام، فقد اعتاد جدّي على الإيلام سنويّاً في هذه المناسبة.

ثلاثة قدورٍ كبيرة، تستند كل واحدة منها على ثلاث إلى أربع طابوقات[1] في فناء الدار، تحترق تحتها أخشابٌ صغيرة، تبدو القدور سوداء إلى ما قبل غطائها بقليل، أعمامي يدورون من قدر إلى آخر، عمي رضا يلقي بالطماطم في داخلها، عمي أحمد يرش الملح في قدر آخر، وعمتي فضيلة تقف على متكأ وترفع يدها للفرج عن عمي قاسم المعتقل، فيما أصبحت ذبيحة الغنم التي لم تُلقَ في القدر بعد فرجة لنا

(1) مفردها طابوقة، وهي تُستَخدَم في أعمال البناء.

نحن الأطفال، يومها حصلت على تعنيف من والدي بسببها، حيث رميت أحد أبناء عمتي عليها في مُزاحٍ فجّ.

بعد الانتهاء من طقوس الطبخ، أصررتُ على أعمامي لاصطحابي معهم إلى حيث توزيع «البركة» على المعزين، مستقوياً بجدي عميد العائلة وصاحب الكلمة الفصل بعد أن كان أعمامي يرفضون الذهاب معهم.

في سيارة «البيكب» أقفُ منتصباً وسط أعمامي ولا أُرى، كأنني فسيلُ نخلةٍ صغيرة بين أعواد نخيلٍ عالية، كأنّ التواري بينهم مثلَ أمانٍ توفّرهُ قلعةٌ حصينة، هكذاً أشعرُ وسط أهلي.

بعد الوصول إلى مكان مرور موكب العزاء، كان عمي جواد ينبه عمي أحمد للاستماع للقصيدة التي يلقيها المنشد في العزاء. حيث أنشد فيها أبياتاً ثوريّة جاءت على ذكر «البرلمان»، لاقى خلالها تفاعل المعزين الذين أخذوا يهتفون بشعارات التكبير، كنت أتلصص على حديثهم بينما أستمع للمنشد، ها هو البرلمان يعود مرّة أخرى لتعود معه تساؤلاتي، ألا يكفي أن يكون على جدران الحي، ليكون في قصائد العزاء هذه المرّة، جنباً إلى جنب مع ذكر الإمام عليه السلام!

خلال تفرّق الناس من موكب العزاء، كانت الأيدي تزدحم علينا بشكل آلي لأخذ «البركة»، الأصوات تختلط بأحاديث شتّى، ومن فوق سيارة «البيكب» العالية، كنتُ أسلّمُ مجموعةً من المعزّين يضعون عصابات على جباههم كُتِبَ عليها

«اللّهم فُكّ أسرانا» نصيبهم من «بركة الإمام»، أمّا وجه جدّي المليء بتجاعيد السنين، وهالات الوجع، والآمال المعلّقة على أبواب أهل البيت عليهم السلام، فقد كان يغمره الرضا.

من بين هذا المشهد، تبدو جلبة جانبيّة لمجموعة ملثّمين يلبسون زيّاً موحّداً ويخطّون عباراتٍ على الجدران، الناس تبتعد عنهم، تبدو مشيتهم وحركاتهم غريبة، لا شيء يظهر من أجسادهم سوى العينين، عرفتُ حينها أنهم يفعلون هكذا لكي لا يتعرّف إليهم أحد، وحين أنهَوا عملهم، تواروا منسحبين باتجاه طريق المزارع فيما خلّفوا ورائهم صوراً مرسومةً للجمري، وعيسى قمبر، والبرلمان!

انقشع العام 1995 عن استشهاد عبد القادر الفتلاوي وهاني الوسطي وهاني خميس، واعتقال أصحاب المبادرة والمئات من الشباب، وبعد أن كاد يلتئم بمبادرة سياسيّة للرموز المعتقلين، ازداد تدهوره مرّة أخرى في العام 1996.

جرت الأيام الدراسيّة كما لو كانت شيئاً ثقيلاً، العلم لعبة الطفل الذي لا بدّ أن يندهش، لهذا صُمِّمَت الكتب المدرسية، لإدهاش الأطفال بأشياء لم يعرفوها بعد، لكنّ هذا لم يكن ليجري بشكله الطبيعي في اللحظة التسعينيّة الخانقة.

في الفصل الدراسي الوادع، كان مدرّس اللغة العربية عبد الله ربيع ينهمك في شرح درس الضمّة والفتحة والكسرة، محمد الجالس على الجهة اليمنى من الصف يتثاءب بشكلٍ

بارد، رائد يعبث بقلمه الرصاص في بياض ورقة على طاولته، بينما يتهامس طالبان في الخلف بأحاديث تبدو شيّقة، هكذا يبدو الفصل رتيباً لولا رائحة اقتحمت المكان من النوافذ لتبدّد التفاصيل الجميلة.

اجتاحت الفوضى فصلنا الدراسي، الأستاذ يغطّي أنفه بغترته البيضاء[1] المصفرة بينما يغلق النوافذ، يتعالى بكاء بعض التلاميذ، أصوات البكاء تتقاطع مع أصوات سعال شديد، الجميع لا يرى بشكلٍ واضح بعد أن أصابتهم الرائحة بحرقة في عيونهم، ودموعٌ بدأت تنهمر، وصعوبة في التنفس!

خرج الأستاذ ليستطلع الأمر، أوصانا أن لا نتحرك من الفصل، وعاد بعد أن عرف أنّ قوات الأمن[2] أغرقت المدرسة بعبوات الغاز المسيّل للدموع.

---

(1) الغترة عبارة عن قطعة قماش بيضاء، مصنوعة من القطن الخفيف، يتم ثنيها بشكل مثلث وتوضع على الرأس، وتُثَبّت بالعِقال. وارتداء الغترة رائج في البحرين وغيرها من الدول الخليجية.

(2) تُعَرف اتفاقيات جنيف الموقعة في العام 1949 (تحديدًا الملحق الأول الإضافي فيها، المتعلق بحماية ضحايا المنازعات الدولية المسلحة) المرتزق على أنه «أي شخص يجرى تجنيده خصيصًا ـ محليًا أو في الخارج ـ ليقاتل في نزاع مسلح و يشارك فعلًا ومباشرة في الأعمال العدائية، (...) ويحفزه أساسًا إلى الاشتراك في الأعمال العدائية أو الرغبة في تحقيق مغنم شخصي». وبموجب هذا التعريف، تتكون غالبية قوات الأمن في البحرين من هذه الفئة، وتحديدًا منذ لحظة إنشاء جهاز الأمن البحريني على يد البريطانيين، حيث شكّل البلوش والهنود وغيرهم من الأجانب قوام قوات الأمن في البحرين بدلًا من قوات الشيوخ المكونة من أبناء القبائل الحليفة. وواصل النّظام البحريني جلب الأجانب لتجنيدهم في قوات الأمن وخاصة في قوات الشغب من قبل النظام، منذ استقلال البلاد مروراً بثورة التسعينيات، وحتى ثورة 14 فبراير. وقد نشرت صحيفة مرآة البحرين في 3 نيسان/ أبريل 2014، وثيقة مسربة من وزارة الداخلية في البحرين بشأن استخدام مرتزقة أردنيين في قوات الشرطة، تبرز أسماء ورواتب (تبلغ ما يقرب من 3100

وعندما هدأت الأمور بعض الشيء، أخرجونا في وقتٍ مبكّر من ذلك اليوم لنعود إلى منازلنا، كأنَّ شيئاً ما قد حصل، هذا ما قالته ملامح مدرّسٍ كان يقفُ بالقرب من البوابة التي يخرج منها الطلاب، كانت دموعه لا تتوقّف، صوته المبحوح وهو يوجّه الأطفال للعودة إلى منازلهم بسرعة يفسِّرُ الحرقة التي تختلج صدره، كأنّهُ أبٌ فُجِعَ بفقد أحد أبنائه.

في الطريق، كانت فرحةُ العودة مبكّراً من المدرسة يكتُمُها شيءٌ كئيب حلّ في الأشياء، لا تبدو خيوطُ الشمس في وهجها الاعتيادي، كان سعف النخيل قد توقف عن مرحه مع رياح الشمال العليلة، وبدى النهار وكأنّه أراد أن يهرب، ومن أعلى نخلةٍ احدودب جذعها لوجعِ الوطن، كانت الحمامة التي تُطرِبُ الحيّ تتوارى في حدادها في عشّها الباهت، أمّا الأرض اليابسة التي ضاقت عطشاً فقد بدت رطيبةً بعد أن أخذ منها الجدبُ مأخذه، كانت طوال الوقت تنتظر، حتى جاء فارسها «عيسى قمبر».

دولار شهريًا) وأرقام حسابات مصرفية لـ 499 شرطي أردني يعملون حالياً في البحرين. كما أشار موقع جدلية في مقال بعنوان « حرب المعلومات: كشوفات عن المرتزقة والتحريض الطائفي والتخطيط الديموغرافي في البحرين» إلى أن المرتزقة يحظون بمكانة متميزة لدى النظام في مقابل المواطنين البحرينيين. وعادة تقدم لهم حوافز على تنفيذ الأعمال القذرة والتي بما فيها الأجر الجيد ويتم إعطاؤهم الجنسية البحرينية كجزء من التجنيس السياسي، والسكن والخدمات الحكومية الخاصة بالأسرة»، لافتًا إلى أن «النكتة السائدة في البحرين، هي أنه يمكنك أن تتوقع اعتقالك على يد باكستاني، واستجوابك على يد أردني وتعذيبك على يد يمني، والحكم عليك من قبل مصري، ولكن على الأقل يمكنك أن تتوقع بأن يكون زملاؤك في السجن بحرينيين».

(2)

للأوطان ما يشبه أوقـات الاسترخاء، إلّا وطني، فعلى الرغم من أنّه يبدو مستلقياً بجغرافيّته الصغيرة في الخليج، تدلّك يابسته أمواجُ البحر من كلّ جانب، إلّا أنّه لم يذُق طعم الراحة منذ زمنٍ طويل، يشبه في طوله وجوه الآباء التي تعبت، وذابت في الطريق.

هكذا يبدو العام 2006 في البحرين، فالبلاد دخلت، منذ أربع سنوات، في ألفيّتها الجديدة في ما يُسَمّى بالمشروع الإصلاحي للسلطة، هذا ما تبدو عليه الأمور، إلّا أنّ شيئاً لا يمكن أن يُصلح عقليّة القبيلة التي جاءت غزواً، وظلّت هُنا تخنق أحلام المستضعفين، فالأوضاع لم تتغيّر فعلاً، وتم التراجع عن الوعود التي قطعوها.

هذا الأمر، جعل المرجع الديني الشيخ محمد سند، ذي العمامة البيضاء، يطالب في خطابٍ له، الأمم المتحدة بإجراء استفتاءٍ على نظام الحكم في البحرين، تماماً كما حدث في السبعينيات، وهو ما جعل السلطات تعتقله من المطار عند عودته إلى البلاد، ما حدا بالعشرات من المواطنين للتوجّه إلى هناك للاحتجاج.

يومها، كُنتُ، بشعري الأسود الفاحم، وحماسي الملتهب، أهتفُ مع المحتشدين بشعارات التنديد باعتقال الشيخ سند، ولم تمهلنا قوات الأمن حتى قمعت ذلك التجمُّع واعتقلت عددًا من المشاركين فيه.

لم يكن تفريق الناس من هناك لينهي سخطهم، فقد بدأت سلسلةٌ من الفعاليات التضامنيّة تجتاح البلاد في مناطق عدّة، كانت إحداها تجمّعاً أمام مجمع الدانة التجاري في منطقة السنابس، اعتدت عليه قوات الأمن أيضًا، ولاحقت المشاركين فيه إلى داخل المجمع!

دخلتُ مع بعض المحتجين إلى داخل مجمع الدانة مهرولاً، أتلفّتُ يميناً ويساراً. المحال التجاريّة مفتوحة، وبدا الارتباك على بعض العاملين فيها جرّاء الجلبة التي تحدث، واصلتُ هرولتي مع زميلٍ لي في التظاهرة، وصعدنا إلى الطابق العلوي بحثًا عن مكانٍ آمن، لم أتوجّه إلى دورة المياه كما فعل آخرون، وبعد ملاحقةٍ أشبه بجولةٍ ينفّذُها حيوانٌ مفترس لاصطياد فريسةٍ ضعيفة، وجدتُ نفسي داخل ثلاجةٍ معروضةٍ للبيع في أحد المحلّات هناك، ومعي زميلي.

هذه هي الأوطان، تضيقُ أحياناً إلى الحدّ الذي لا تخلق لك فيه مكاناً للهرب من قوات الأمن والعسس، لا تخترع لك ممرّاً ولا زُقاق، وترابها، ذلك الخشن الناعم المليء

بالصخور، لا يُعبّد الطريق إلى مكان، تماماً مثل المتاهات السياسيّة التي تمرّ بها معظم الأوطان، لا تؤدّي إلى مكان.

شعرتُ بالاختناق، وأخذ جسدي يرتعش، لوهلة، أحسستُ أنّ في أوّل لحظات القبر، يا لقبري الضيّق، الأصوات في الخارج غير واضحة، وشوشةٌ تدور في عقلي، حاولت فتح باب الثلاجة فلم أستطع، قمت وزميلي بركل الباب بقوة دون جدوى، أصبحت الأصوات الآن أقل دواراً في رأسي، مثل شيء يتضاءل شيئاً فشيئاً بشكل دائري، كان شبح الموت يحاصرني، فاستسلمت خائراً لرحلة صغيرة فيه.

استعرضتُ وجوه الأحبة واحدًا تلو الآخر أمام ناظريّ. صرت أفكر: «كيف سيتلقون الخبر؟» تصورت أمي واقفة تبكي أمام نعشي، واحترق قلبي لأجلها. كان المشهد مهولًا. لكن الألطاف الإلهية جنبتني وصديقي هذا المصير، إذ ساعدنا وجود أحد الأشخاص، وكان مختبئًا في مكان قريب. شكّ هذا الشاب بوجود أحد داخل الثلاجة، لكنه لم يتمكن من التأكد من الأمر قبل خلو المكان من مرتزقة النّظام.

بعد انسحاب العناصر الأمنية من المكان، تم فتح الثلاجة، وكُنّا في داخلها مغميًا علينا، فتمّ إنعاشنا، ونجونا بعد أن كُنّا على وشك أن نلفظ أنفاسنا الأخيرة.

مرّ ذلك العام بخير رغم المخاض السياسي الذي عاشته البلاد والجدل حول المقاطعة والمشاركة في الانتخابات،

أُفـرج عن الشيخ سند بعد تظاهرات وتحرّكاتٍ سياسيّة وخطابات نادت به، وقرّرت الجمعيّات المعارضة خوض الانتخابات النيابيّة والبلديّة بعد أن قاطعتها في العام 2002، فيما كشف مستشار حكومي كبير عن تقرير له[1]، أعلن من خلاله عن مخطّط طائفي خطير ينفّذه الحكم لتهميش الطائفة الشيعيّة. شكّل التقرير صدمةً كبيرة، واعتُبِرَ قنبلة العام، حيث كان ينبىء بأيامٍ حُبلى بالأحداث، والغضب، والسخط العام. قرّرت السلطات ترحيل المستشار إلى بريطانيا حيث يحمل جنسيّتها بعد أن اعتقلته، ومنعت الصحف من تداول ما جاء في تقريره!

حملت تلك السنة إشارات خطيرة، صار الأفق يستحثّ الحمرة مرّة أخرى، وأمواج البحر التي تداعب شواطئ الوطن الجريح بدأت تنكأ في جرحٍ قديم، ترشّه بماء أُجاج طالما طغى، وحدها نخلتنا المنتصبة في البيت، ظلّت شامخة، مثل من جاءته علائم البلاء وظلّ صابراً، أو داهمته عواصف المصيبة ولم يُذهل!

(1) اشتُهر هذا التقرير باسم تقرير البندر نسبة إلى معده «صلاح البندر»، المستشار السابق آنذاك لوزير شؤون مجلس الوزراء في البحرين. وهو عبارة عن وثيقة من 240 صفحة، أصدرها مركز الخليج للتنمية الديمقراطية في سبتمبر/ أيلول 2006. يتضمن التقرير مخططًا كاملًا لتعديل التركيبة الديموغرافية في البحرين، ويُعتَبَر أحمد عطية الله آل خليفة، الذي أشرف على إعداده، مهندس المشروع الطائفي في البحرين.

(3)

تتابعت قضيّة الاحتجاج في المطار بعد اعتقال عددٍ من المواطنين هناك على خلفيّة اعتقال المرجع الديني سماحة الشيخ محمد سند، فصارت عوائلهم تنظّمُ وقفاتٍ احتجاجيّة قرب المحكمة في المنامة، حيث كنت أتواجد معهم وأهتفُ بالشعارات.

كانت أجواءً ثوريّة بلا ثورة، تنتظر فصول النضج لتثمر، بلا واجهات سياسيّة، عارية إلا من الله، إذ كان هو الحامي والمسدّد والملجأ الوحيد، وحده الله هو الذي ينير الدرب الموحش، ويباعد الشوك عن الطريق، ويرسم المتبقي منه.

يومها كنت أمسك بالمايكروفون وأردّد شعاراتي، واثقاً من شيءٍ واحد، أنّ الحقّ لا يضيعُ ما دام وراءهُ مُطالب، وأنّ الظلام لا بدّ أن ينجلي، ويخرج المعتقلون من السجون مكلّلين بأهازيج النصر، وزغردات الأمّهات، وفرحة العودة والحريّة، ما هو الوطن إن لم تحصل فيه على كلّ هذا؟

محاطاً بعددٍ لا بأس به من عوائل المعتقلين، جاءني رفيقٌ وهمس في أذني عن وجود عميلٍ يصوّر الاعتصام من داخل

المحكمة، وأنّه عليّ أن أُحذّر المُقدّم عبد السلام المسلم بأنه في حال لم ينسحب العميل، سنخرجُ في مسيرةٍ داخل المنطقة الدبلوماسيّة حيث تقع المحكمة، فعلتُ ذلك عبر مكبّر الصوت، إلى أن جاء «المسلم» وأمر العميل بالانسحاب مستخدماً برقيّته الخاصّة.

مرّت دقائق وهتافاتنا تعلو عنان السماء، لتؤكِّد أنّ قاضي السماء أعلى بكثيرٍ من قاضي الأرض، وأنّ حسابه عسيرٌ مع هؤلاء القضاة الذين رهنوا أنفسهم لخدمة الظالمين، والجور على المستضعفين.

ظهر العميل مرّة أخرى، فقرّرنا تنفيذ تهديدنا الذي أعلنّاه، خرجنا في مسيرةٍ غاضبة في شـوارع الدبلوماسيّة، جاء «المسلم» مرّة أخرى محاولاً التحدّث معي، قلتُ له متعالياً، أن لا حديث لي معه، وبنبرةٍ لا يشوبها شيء، قلتُ له اذهب وتحدّث مع الشيخ علي الجدحفصي أو شخصٍ آخر، لم أُعِرهُ أيَّ اهتمام، إلى أن جاء يومٌ لم يكن في الحسبان وصرتُ في مواجهته!

تدور الأيّام بسرعة، ولا يمكن التكهُّنُ بما سيجري فيها، تقسو وتباغت وتنزلك منازل ليست من شأنك ولا تبقي لك من الفرص شيئاً، هكذا التقيتُ بالمقدّم «المسلم» مرّة أخرى بعد سنوات من توظيفي في السلك العسكري، كنت سأذهب

لأشرب الشاي، لولا أنّ اتصالاً ورد من «المدير» لقسمنا، طلب فيه بدلةً بقياساتٍ معيّنة، فأرسلوني لتسليمها إليه.

طرقتُ الباب ودخلت، فأصبحتُ في مواجهة «المسلم»، اندهشتُ من رؤيتي إياه ومرّ شريطُ الذاكرة. أنا ألوّح بيدي رافضاً الحديث معه. عندما شاهدني وقف مصدوماً وأخذ يردّدُ: أنت!!.. أنت!!

لم يكن أمامي سوى أن أكذب، تظاهرتُ أنّي لا أعرفه، وبينما كُنتُ أحاول إخفاء ارتباكي الواضح، أخذ هو يتفرّسُ في وجهي متسائلاً: هل أنت نفسه الشخص الـذي أمام «الساتر»؟ كان يقصد برادات الساتر في منطقة بني جمرة، حينها ارتحتُ قليلاً أنّه لا يتذكّرني جيداً، أجبته باستغرابٍ مصطنع: لا يوجد سواتر هُنا وإنّما بدلاتٍ عسكريّة فقط، بدا أنّ إجابتي استفزّته فارتفع صوته: لا.. أنت الذي كنت معهم أمام الساتر. لم يكن يتذكّر أين رآني، خطر في بالي الاستهزاء أو أن أذّكره أين رآني لكنّه ذهب بسرعة، أجبته أنّني لا أعلم عن أيّ أمرٍ يتحدّث.

وبينما كان هذا الحوار يجري بيننا، أخذ المدير يضحك في حين كانت تخرج من فمه الكبير سحابةٌ بيضاء من الدخان، شاربه المرتّب بعناية وشفاهه السوداء من جرّاء التدخين يجعلانه مثل من يتقن الاستنتاج، لكنّ الأمر كما يبدو مرّ عليه، كان يقول لـ «المسلم» بأنّه من كثرة ما يتعامل مع الناس أخذ

يشكّك بالجميع، إلّا أنّ الأخير صار يقسم بالله أنّه رآني ولكنّه لا يتذكّر أين ومتى.

اصطنعت أمام المدير علامات الاستغراب والتعجُّب، قطبّتُ حاجبيّ قليلاً، وأسدلتُ شفتيّ بشكلٍ تراجيدي، إلّا أنّني لم أستطع إخفاء حبّات العرق على جبيني. لم تنقطع ضحكة المدير، الذي أمرني أن أنصرف، وخلال خروجي من الغرفة التي حَبَسَت أنفاسي، تطفّل «المسلم» مرّة أخرى وسألني: هل لديك أخٌ يشبهك؟ فقلت له بأنّه لا إخوة لديّ بينما أَنصَرِفُ بسرعة، أمّا هو فقد ظلَّ يُحرِّك رأسه وكأنّ على رأسه الطير!

مضت هذه الدقائق وكأنّها الدّهر، وحمدتُ الله أنّ الحديث لم يتطور إلى أكثر من هذا، وأنَّ «المسلم» لم يتذكّرني، ضحكتُ في داخلي، وأقررتُ أيضاً في نفسي أن لا أمان لهذه الدنيا، فبقدر ما هي هيّنة، بقدر ما تدخلك مداخل سافلة، مثل أرضٍ رخوةٍ لا يمكن الوقوف عليها.

(4)

في العام 2008، دخلتُ الأكاديميّة الملكيّة للشرطة، كان الفجرُ موعدنا اليومي، أهذا هو فجرُ بلادي الدامس الذي لا يظهر منه شيء، حتّى الخيط الأسود من الخيط الأبيض؟ تماماً مثل الطرق الوعرة التي نسلكها ولا نعرف نهايتها؟

أقفُ أمام المرآة في الرابعة فجراً من كلّ يومٍ لأبحث عن شعرةٍ في رأسي وذقني فلا أجد، يُراد لذقنك هنا أن تكون جرداء كذلك، تماماً مثلما يريد القانون العسكري، يا لغباء هذا القانون، ما علاقة المظاهر الشخصيّة بمؤهلاتك لتصبح شرطيّاً؟ يبدو هذا الأمر مضحكاً!

أمام المرآة أجدني متعباً، وملامحُ روحي تائهة، أنظر في عينيّ الذابلتين فلا أجد شيئاً، هكذا أنصرفُ يوميّاً من أمامها بشكلٍ آلي، متجمّد القلب والروح والجسد، من دون أن أشعر أنّني كذلك، مثل شيءٍ أصابته سكرةٌ ما، وأنسته كلّ شيء!

أقفُ بعد ذلك أمام العَلَم لتأدية السلام الوطني، لا زال الفجر في أول الوقت، يرسل تسبيحات السحر من على سجادات الملكوتيين، بينما نرسل نحن سلاماتنا لوطنٍ

لم يستيقظ بعد، وبدلًا من أن يحتضننا، صرنا نحن، أبناؤه ومحبوه، نفعل ذلك له، كوفاءٍ لا بدّ من أن نعبر عنه في كل آن، حتّى نكون بارّين به وبسمائه وأرضه.

كان يجب أن يكون سلاماً وطنياً، لكنّه صار سلاماً ملكياً بقدرةِ قادرٍ في العام 2002، هكذا تتحوّل السلامات الوطنيّة إلى سلامات ملكيّة، في أوطانٍ تتحوّل فيها العوائل الحاكمة إلى أصنام لا بدّ من تقديم الولاء لها، وعندما تتمرّدُ الشعوب على ذلك، فإنها تُصبح خارجةً عن الوطنيّة والولاء للوطن!

بعد ذلك، تماماً في الرابعة والنصف فجراً، نعود للثكنات للصلاة وارتداء الملابس الرياضيّة، الصلاة هنا تأتي بعد تحيّة العلم، لا عليك من كلّ العبارات التي تؤكِّد أنّ الله أولاً وأنّ الوطن ثانياً، هنا في المعسكر يكون العلم أولاً وبعد ذلك يأتي الله، كما أنّ الملك أو الأمير ليس ثالثاً، إنّ الحاكم دائماً أولاً وقبل كلّ شيء، فهو يستحلّ محارم الله ويخوض في الدماء ولا شيء يوقفه، الحكام يتعاملون مع الدين كواجهة فقط، ولا يضعون له أي اعتبار في ممارساتهم وأحكامهم!

تبدأ التمارين الرياضيّة والجري قبل شروق الشمس بقليل، الشمس صديقة وقتنا الوطني الثمين، هكذا تمدُّ خيوطها الدافئة عند الشروق، لكنّها تلتهبُ كلّما تقدّمت عقارب الساعة نحو الظهيرة، أعرفُ أنّ مناخ وطني حارّ، على الرغم

من أنّنا نبدو في فصلٍ آخر، إلّا أنّ الملابس الرياضيّة ترسمُ خرائط العرق بسرعة.

أجلسُ على مائدة الإفطار بين زملائي في الساعة السادسة والثلث، القاعة تمتلئ بالمتدربين، كلّهم حليقو الرؤوس، تماماً كما هم حليقو الكرامة، فوضى الأحاديث تتداخل بشكلٍ مزعج، لا أحد ينتبه إلى الآخر، أنظرُ للوجوه فأراها تستعجلُ البشرى بغدٍ أفضل، أو هكذا أظنّ، أجدُ فراغاً يتقاطع مع الأشياء فيُخلّفها بلا معنى، وإلّا فما معنى كلّ هؤلاء الذين ينتظمون معنا هنا وهم من بلادٍ أخرى؟

يمرّ اليوم في المعسكر مثل ساعةٍ لا تقبل الخطأ، السابعة صباحاً الرجوع للثكنة لارتداء الزيّ العسكري، السابعة والربع التوجّه إلى الميدان للتدرّب على المسير العسكري وحركات السلاح، العاشرة الانتهاء من المسير والتوجّه لمدرسة التعليم، الثانية عشر والنصف ظهراً الانتهاء من حصص التعليم والخروج في استراحةٍ للصلاة، الواحدة والثلث ظهراً وجبةُ الغداء، الواحدة وخمسين دقيقة تنظيفُ الثكنات، الثانية والربع استراحةٌ يمنعُ خلالها النوم، الرابعة عصراً حصّةٌ أخرى لتعليم المسير العسكري، الخامسة والنصف إنـزالُ العلم والتوجّه للصلاة، في الثامنة والنصف تُطفأ الأنوار للنوم.

هـذا هو الروتين اليومي، وفـي حـال تجاوز المتدِّرب القوانين والبرامج المعمول بها فإنّه يُعرِّض نفسه لعقابٍ قد

لا يتحمّله، سواء بالتمارين الشاقّة، أو بالحرمان من الإجازة الأسبوعيّة.

لا زلتُ أتذكّر، أنّني بعد يومين من دخولي للمعسكر، ولأنّني لم أعتد الاستيقاظ في ذلك الوقت المبكِّر جدّاً، أنّ النوم أخذني إلى حيثُ ذلك العقاب الذي يتكلّمون عنه، قلتُ لماذا يتمُّ إيقاظُنا في هذا الوقت من أجل عَلَم؟ واصلت النوم من دون مبالاةٍ، على الرغم من محاولات إيقاظي حتّى بعد انطلاق صوت الجرس الذي يعني بدء التحيّة، إلى أن جاءني العسكري المسؤول ليخبرني بأنّني محتجزٌ لمدّة أسبوع!

هناك، في المعسكر عينه، فكّرت دائماً في تهريب هاتفٍ نقّال لكسر ذلك الروتين القاتل، استدرجت الموظف الباكستاني العامل في المقصف. كسبتُهُ منذ اللحظة الأولى بقطعةِ حلوى وعلبةِ عصير. هؤلاء ضعافُ نفوسٍ، جاؤوا إلى بلادنا من أجل التكسُّب، ومن السهل اللعب على عقولهم ببعض المال.

بعد أن تمتّنت علاقتي به، وصارت أحاديثي معه يوميّة، أثرتُ فضوله بقولي له في أحد الأيام أنّني أريده في موضوعٍ مهمّ سأخبرهُ به لاحقاً، لم يستطع الصبر إلى اليوم التالي، وجاء إلى ثكنتي للسؤال عنّي فلم يجدني هناك، هكذا أخبرته في اليوم التالي مباشرةً بما أريد، عرفتُ أنّه سيوافق بلا تردد، وهذا ما حصل فعلاً.

أخبرت أحد الزملاء الذين تم اكتشاف أمرهم خلال تهريبه لهاتفٍ أنّ لدي واحد ويمكنه استخدامه، أراد معرفة طريقة التهريب ولم أخبره، نسّقتُ له تهريب بعض أجهزة الهواتف الأخرى، إلّا أنّ اكتشاف أحدهم بعد فترة أوقع بي، فالأخير اعترف أنّني أُنسِّق تهريب الهواتف في المعسكر، فجاءني العريف سعيد بينما كنتُ أجلس على باب الثكنة، سألني عن هاتفي، وبـدأتُ أضحك، إلّا أنّه توجه إلى مخبئي وأخرج الهاتف.

عندما تمّ التحقيق معي حول الأمر، أخبرتهم أنّني أهرب الهواتف من خلال مخبأ خاصّ في الشنطة لا ينتبه له المفتّش، كما تمّ توبيخ المدرّب الباكستاني بسبب كثرة الهواتف عند الفصيل المسؤول عن تدريبه. تمّ حجزي حينها لمدّة أربعة أسابيع.

(5)

آلت الأمور إلى هنا، ثورة الرابع عشر من فبراير تُقمع في ميدان اللؤلؤة في العاصمة المنامة، إنّه يومٌ كالحٌ أسودٌ كئيب من سنة 2011 مثل باقي أيّام الوطن العَكِرة. كنتُ نائماً في بيتنا بمنطقة العكر جنوب الميدان مكان التجمع الشعبي الكبير، وذلك بعد يوم من المواجهات في منطقتنا، مع قوات الأمن التي يتم جلبها من الخارج وتوظيفها كمرتزقة، حينها كانت مكبّراتُ الصوت تنادي من المسجد القريب من منزلنا بالتوجُّه إلى هناك، فما يسمى بدرع الجزيرة دخل البلاد قبل يومين، هاجم بعدها دوّار اللؤلؤة بالنّار والحديد والرصاص والغازات القاتلة، استيقظتُ فزعاً، خرجتُ من غرفتي مهرولاً للخارج، كنتُ أتصبّبُ عرقاً رغم الجوّ البارد، سألتني أمي حينها إلى أين أتوجّه فقلتُ لها: «إلى ميدان الشهداء».

ركبتُ سيارتي واتصلت بأحد أصدقائي، استمهلني عشر دقائق لكني استكثرتها، فذهبتُ من دونه، لم يكن الطريق قد قُطِع بعد، كان يوماً استثنائياً في كل شيء، حتّى الشمس

بدت غائرةً في السماء، خجلةً من أن تكون حارّةً على أجساد الثائرين، وهي مُحِقة، فأرواحهم أحرُّ من خيوط أشعّتها الملتهبة!

في الطريق وردني اتصالٌ من إحدى عمّاتي تتوسّلني أن أرجع، كنتُ أقول لها إنّ الرجوع يعني أنّنا سنُسحق وستُسحق الأجيال القادمة، وأنّ التراجع اليوم يعني الـذُّل في الغد، كانت تبكي بشدّة، شعرتُ بحرارة بكائها في أذني اليمنى، غير أنّي لم أتراجع، فالخوف الذي يجعلك مستسلماً خائراً أمام التحديات لن يؤمنك من شيء، ستبقى دائماً وأبداً أمام تحدٍّ آخر، ليس من الضّروري أن تصمد أمام سياط الضمير ورصاصات الألـم الداخلي، ما سيقتلك هو هـذا، أمّـا في مواجهة الواقع فقد تنجو، عندها سيكونُ ضميرك فخوراً بك، وهي أعظمُ راحة.

عندما وصلتُ، ركنتُ سيارتي بالقرب من مركز شرطة النعيم، وتوجّهتُ مهرولاً للميدان، اللؤلؤة المعلّقةُ على الأضلاع الستّة تبرُقُ أمامي بدماءِ شهداء الخميس الدامي، لم يصل الجيش بعد، والخيام كما هي، مبعثرة في كلِّ مكان، الأشياء تتشبّثُ بالأرض، تماماً مثل أشجار النخيل الموزّعة في أرجاء المكان، الوضع أشبه بالفوضى، والمايكروفون يصدحُ بالدعاء، الرياح الشماليّة غاضبة، وأشياءُ مبعثرة ومهجورة هنا وهناك.

توجّهتُ إلى الخيمة التي يقطن فيها أبناء قريتي، الجميع في الميدان يستعد لمجيء الغزاة بعد إعلان حالة ما يسمى بالسلامة الوطنيّة، أفرادٌ يوزّعون عُلب الحليب لمسح الوجه للتخفيف من حُرقة الغازات المسيّلة للدموع، آخرون يوزّعون أكفاناً كُتِبَت عليها عبارة «أنا الشهيد التالي»، بينما تقرعُ مجموعةٌ من السّيارات من أعلى «الكوبري» المتّجه للمنامة على الحاجز بإيقاع «تن تن تتن»[1].

عندما وصلت الوحوش الكاسرة إلى فريستها، كانت شبكة الاتصالات قد قطعت قبلها بساعة تقريباً، حيث أخذت تقمع بلا هوادة، تحلق لمؤازرتها طائرات «الأباتشي» العسكريّة على ارتفاع منخفض وتدعمها عند الحاجة بالرصاص والنار، الشباب يقاومون دخول القوات المدجّجة بصدورهم العارية، السلميّة عنوانهم منذ اليوم الأول، ما عدا البعض، فسلاحهم الحجارة، أصوات التكبير والهتافات تختلط مع أصوات طلقات الأعداء، الجيش الغازي كبير، ما كان أكبر منه حقاً هو الله وحده.

بدأت السيارات تنقل النساء والأطفال بعيداً عن المكان، وأخذ الناس ينسحبون باتجاهات مختلفة جراء آلة البطش التي لا ترحم، أمّا أنا فقد حاولت البقاء لأطول فترةٍ ممكنة في

(1) نزل الشعب البحريني إلى الشارع للاحتجاج في 14 فبراير/ شباط 2011، وكانت مظاهر احتجاجه مدنية سلمية، من خلال عدة وسائل من بينها إغلاق الشوارع وإطلاق إيقاع «تن تن تتن» من أبواق السيارات.

المكان، متشبثاً به وبرائحة الدماء التي سالت هناك، شعرت بالغضب من إخلائه، أحسستُ وكأنّ الوطن أصبح يائساً، فالقبائل قد اجتمعت على قتله، ليضيعَ دمه بينها فلا يستطيع أحدٌ من أبنائه المطالبة به، تذوّقتُ تلك اللحظة التاريخيّة وكأنّها شيءٌ مرٌّ لا بدّ أن نتجرّعه، كمرحلة تسبق ولادة الفجر.

ركبت سيارتي المركونة أمام مركز شرطة النعيم بينما يتحصّنُ عددٌ من أفراد الشرطة في المركز ويوجّهون طلقاتهم على العُزّل في منطقة النعيم، توجّهتُ إلى مستشفى السلمانيّة بعد أن أجليتُ معي أحد الجرحى، بعد فترةٍ بسيطة من وصولي إلى هناك، حاصرت القوات المستشفى المليء بالجرحى والمصابين، بعضهم جرحى اليوم نفسه، والبعض الآخر جرحى الخميس الدامي، أجساد البعض مثقوبة بفعل رصاص الشوزن، والبعض الآخر بالرصاص الحيّ، وآخرون خنقتهم الغازات السامّة، إنّها مجزرة بحق، وعارٌ سوف يلاحق الظلمة إلى الأبد.

من النوافذ الكبيرة للمستشفى، شاهدتُ وعدد كبير من المصابين المحاصرين هناك كيفية قيام قوات الأمن بتكسير السيارات والاعتداء على الممتلكات الخاصة، التلفزيون الرسمي وصف العملية بأنها إجلاءٌ للمخرّبين من دوار اللؤلؤة وتطهيره، فمن المخرّب يا ترى؟

بعد عودة شبكة الاتصالات بشكل تدريجي، اتصلت

بأحد الأصدقاء للاطمئنان على أحـوال قريتي، سألته عن توجه الناس لكسر الحصار، أخبرني أنّ القرى محاصرة وأنّ الأوضاع متدهورة ولا يستطيعُ أحدٌ الخروج، أنهيتُ مكالمتي معه وصعدتُ إلى الطابق السادس مع بعض الأصدقاء، المرضى هناك من كبار السنّ، وعلى الرغم من الرعب الذي ملأ البلاد في ذلك اليوم، إلّا أنّنا كنا نتبادل المزاح، وقال أحدهم إنّ من المناسب المكوث في الطابق الأخير، حيث ستصل القوّات متعبة إلينا فتقلُّ عندها وجبة التعذيب.

مساءً، أقمنا الصلاة في ممرّات المستشفى، بعدها بدأت الشائعات تنتشر بيننا، منها خبر اعتقال الرموز وسقوط شهداء في بعض القرى، كان الجميع قد لجؤوا إلى المستشفى على أمل العودة لميدان الشهداء كما في سيناريو العودة الأول، لكنّ القوم قد بيّتوا النيّة على دحر الشعب وإعادته وإصابته في مقتل.

في العاشرة مساءً، كان الجوع قد داهم الجميع، أحدُ الأصدقاء كان بحوزته خمسة دنانير فاشترينا بها العشاء، أوصيناه بالاقتصاد لعدم معرفتنا الفترة التي سنمكثُها هنا، عشاء تلك الليلة لم يكن هانئاً، فأزمةُ الوطن تصل إلى ذروة مأساتها وتُنغِّصُ كلَّ شيء.

بعد انسلاخ نهار اليوم التالي من ليلةٍ حزينة طويلة كعادة ليالي الشتاء، أخذت قوّات الجيش تُجلي الموجودين في المستشفى، كثيرون لم يكونوا مطمئنين وكنت أحدهم، استخرت الله على الخروج، فكان النهي شديداً، عرفتُ

بعدها أنّ الشباب يخرجون شيئاً فشيئاً من المستشفى، لم يكن باليد حيلة، أخرجنا صدقة وتوكّلنا على الله وخرجنا من هناك.

كانت قوات الأمن تقف عند البوابة الرئيسيّة للمستشفى، عناصرها يدقّقون في البطاقات السكانيّة، يسألون عن المنطقة، ويطلبون من الجميع الانصراف، توجّهتُ حينها إلى سيارتي وكان بصحبتي أحد أبناء قريتي، عندما خرجنا من البوابة الخارجيّة وجدتُها محطّمة وممزقة الإطارات، كان قد مرّ اسبوعٌ فقط على شرائي لها، لم أشعر بالأسف، فلم تكن شيئاً يذكر أمام نفسٍ واحدٍ من أنفاس المشاركين في الثورة، فضلاً عمّن ضحوا بأنفسهم!

الدبابات تنتشر في الشوارع، كان المشهد ينبئ من يراه أن هذه الجيوش جاءت لقتال جيوش أخرى لا شعباً أعزل، كُنّا نريد الابتعاد قليلاً باتجاه مدرسة الجابريّة للاتصال بمن يأتي ليقلّنا إلى القرية، ذهبنا إلى النادي الأهلي واختبأنا هناك تحت شجرةٍ تفاديًا لطائرات الهيلوكوبتر، كان الوطن معنا يستظلّ بظل تلك الشجرة، يُحدّثنا عن أمله في النصر القادم، عن أبنائه البارّين الذين قدّموا أرواحهم ودماءهم وجهادهم، وعندما وصل صديقنا الذي سيقلّنا، تركنا الوطن هناك تحت تلك الشجرة بينما لا زال في أول أحاديثه، وذهبنا.

(6)

بعد استشهاد الشهيد فاضل المتروك، ثاني شهداء ثورة الرابع عشر من فبراير، دخل أحد أقاربه من العساكر بعد خمسة أيام من استشهاده إلى موقع العمل وقدّم أوراق وفاة الشهيد وأوراق إجازة مرضيّة لموظّفة هناك، قائلاً لها بحرقة قلب: أمّا يوم غد فأنا مُضربٌ عن العمل، وإذا كان لديكم شيء اذهبوا لشباب 14 فبراير أو الجمعيّات السياسيّة وبعدها تعالوا وتحاوروا معي!

بدا الجميع مصدوماً مما يقول، ينظرُ بصمتٍ لذلك الموقف المجنون، وعمّا سيؤول إليه. كان الشاب يهمّ بالخروج لولا أنّه التفت نحو صور حكّام البحرين، موجّهاً يده نحوهم وكأنّه يحاكمهم: «انظروا لهؤلاء الأصنام الثلاثة، سيسقطون وسنودعهم السجن».

كانت هذه الكلمات الأخيرة كالصاعقة، جعل الموظفة العسكريّة تسارع في كتابة تقرير حول ما جرى، طلب الضابط المناوب على إثره شهوداً، ولأنّي كنت أحد الحاضرين طلبت منّي الموظفة أن أكون شاهداً فرفضتُ ذلك، مبرّراً ذلك بأنّي

لم أسمع ما حدث، وهو ما أغضبها وصارت تُردّد: ولا تكتموا الشهادة، فيما صرتُ أردّد معها ببرود أعصاب: لم أسمع شيئاً.

هكذا يريدون لنا أن نُسلّم الوطن لهم لقمةً سائغة، تماماً كما يخونونه ليل نهار، تارة باستجلاب المرتزقة وتجنيسهم، وتارةً بتقديمه للأجنبي والمستكبر والمحتل ليعيث فيه فساداً. في هذا الوضع، لم يكن خروجنا إلى ميدان اللؤلؤة خاطئاً ولا للحظةٍ واحدة، فالوطن كان بحاجة لحالة إنعاش.

في ميدان اللؤلؤة، التقيت بذلك الشاب وتحديداً في مضيف ميدان الشهداء، كان يخبز «الجباتي»[1] للمعتصمين، تبادلت معه أطراف الحديث، ورويت له ما حدث بعد خروجه من المركز في ذلك اليوم،. لاحقًا، تطوّرت الأحداث إلى أن دخل درع الجزيرة إلى البلاد فهرب الشاب إلى دبي، وبعد أن تم إلغاء العصيان المدني عدنا إلى أعمالنا، فتلقيت اتصالاً منه يبدي فيه رغبته في العودة إلى البلاد وتقديم استقالته، سألته باستغراب: «هل تعلم بما يحصل في البلد؟» بدا صمته وراء سماعة الهاتف طويلًا، قلت له إنّ درع الجزيرة والجيش هدموا المساجد واعتقلوا الرموز ولم يُبقوا حرمةً لأحد، انتظر قليلاً، أنا مثلك أريد تقديم استقالتي ولكن في حال قدمتها في هذه الظروف فمصيري السجن، ردّ عليّ بأنه سينظر في الموضوع.

(1) نوع من الخبز الشعبي الرائج تناوله في البحرين.

عندها، كـان قد اتصل بوكيل القوّة في مركز الشرطة وأخبره برغبته في تقديم استقالته، قال له تعال إلى هنا وقدّمها واذهب لمنزلك، هذا ما قاله لي في الاتصال الثاني، قلت له بأنّ في الأمر حيلة من أجل القبض عليه، وشدّدتُ عليه بعدم العودة وبأنّ الوضع ليس آمناً، طلب مني أن أستكشف الأمر، فاستفسرتُ عنه في المركز وعن مصيره في حال قدم استقالته، وقد أخبروني ما أخبروه إيّاه تماماً. حينها اتصلت به مرّة أخرى وأطلعته على نتائج استطلاعي حول الأمر ونصحته بعدم العودة، فقال لي بأنه سيعود وليحدث ما يحدث!

في اليوم التالي، وبينما كنت أهم للانصراف من مكتبي، أقلّب هموم الوطن في خاطري الهائم، والتعب ينخر قلبي، وإذا بي أراه يدخل المركز وكأن شيئاً لم يكن، توجهت إليه مسرعاً: لماذا أتيت؟ فقال لي كما في المرة الأولى: فليحدث ما يحدث!

توجّه إلى وكيل القوة الذي وعده بالأمان، فاستمهله إلى أن يخبر الضابط بتواجده هناك، التقيتُ به بعد خروجه من عند الضابط وسألته ماذا سيحصل، قال لي إن الضابط أمر باعتقاله، ذهبت مسرعاً إلى صديقي وأخبرته بالأمر، وأخذت آمره بأن يهرب بسرعة من البوابة الآن، إلا أنه رفض!

تمّ القبض عليه، أدخلوه أوّلاً على الضابط المناوب، ومن ثم طلبوا منّي إيصاله إلى مركزٍ آخر لعدم وجود من يوصله،

رفضتُ في البداية، حيث كنتُ قد قطعت عهداً مع نفسي أنّه في حال وصل الأمر إلى وقوع الظلم على أيّ أحدٍ فإنّي سأخالف الأوامر حتّى لو تسبب ذلك في اعتقالي، إلّا أنّ فكرةً لمعت في رأسي، وهي أن أستغل هذه المهمة من أجل تهريبه.

قلت له، في السيارة، إنّي سأوصله إلى منطقته، وطلبتُ منه أن يغادر البلاد بسرعة، ردّ عليَّ ضاحكاً بأنّه لا يريد توريطي في الأمر، أصرّيتُ عليه ولكنّه رفض رفضاً قاطعاً وطلب مني إيصاله إلى حيث طلبوا منّي. كنتُ قد هيأتُ نفسي للهروب أنا أيضاً؛ فالأوضاع لم تكن تُحتمل.

أوصلته إلى حيث طلبوا مني، سلّمني أغراضه الشخصيّة لأوصلها إلى منزل أهله، أشرتُ له في آخر اللحظات إلى أنّ فرصته في الهرب لا تزال سانحة. ابتسم باطمئنان، كمن يعرف أنّ التضحية لا بد منها لإنقاذ الوطن، كان يواجههم بموقفه الصلب، يُسلّم نفسه لهم ليقول «إنّي لست خائفاً، وإن الوظيفة تحت قدمي، وإنّ السجن أحبُّ إليّ مما تدعونني إليه».

(7)

كانت رياح آذار الباردة تذوي عبر بيوتات قرى ومدن البحرين، تعلن دخول ما يسمى بحالة السلامة الوطنية، لم يسخّنها إلا شيءٌ واحد، دماء الشهداء الذين تساقطوا من شجرة الوطن، هبّ عليهم عتوّ الطاغي وأسقطهم مثل أوراق الخريف، كانت هذه طريقة الوطن للشعور بالدفئ في مثل هذا الجوّ البارد.

رأس أحمد فرحان المتناثر يوقف كلّ شيء يملك إحساساً، جعفر محمد، أحمد عبد الله، جعفر معيوف، عيسى رضي، عبد الرسول الحجيري، جواد الشملان، بهيّة العرادي، هاني عبد العزيز، عبد العزيز عياد، عيسى محمد، سيد أحمد شمس، حسن جاسم، سيد حميد محفوظ، علي صقر، زكريا العشيري، عبد الكريم فخراوي، عزيزة خميس، سلمان أبو دريس، جابر العلويات، حسن الستري، مجيد محمد، زينب آل جمعة، علي جواد الشيخ، سيد جواد أحمد، أحمد القطان، علي الديهي، علي عباس، عبد النبي كاظم، الطفلة ساجدة فيصل، علي القصاب، عبد علي الموالي.. وقبلهم شهداء

انطلاقة الثورة وشهداء الخميس الدامي وشهيد الفتح عبد الرضا بوحميد، كلّهم غابوا في سنة واحدة، كحمرة مغربيّةٍ باهرة!

هكذا كان ذلك العام الحزين، كمشهدٍ كربلائي عظيم، لا يثير في قلبك الأسى إلّا وأثار معه عزةً وقوّة، هكذا هم الشهداء، لا يمكنهم إلّا أن يُشعلوا الشموع البيضاء، لا يسعهم إلّا أن يدخلوا القلوب فاتحين شعورها فيوقظونها بعد أن كانت نائمة في الفراغ، إنّهم يُدهشونه بالمعنى، كشيءٍ جديدٍ لا يمكن رؤيته قبل ذلك، لا يمكن إبصاره إلّا بعد أن يتساقط الشهداء واحداً تلو الآخر.

ومن أجل أن تعوي الذئاب، لا بدّ للظلام أن يخيّم على كل الأشياء، إنّها سنن الطبيعة وتجلياتها، أليست الثورة تعني الصراع؟ أليست الدنيا جبهات؟ أليست الحياة جولات؟ هذا ما يبدو، لذا كان عواء الذئاب مثل صيرورةٍ لقناعاتٍ أخرى، تشتد وتتشكل وتستقر، ولا تنتهي.

ومثل كرة ثلج تتدحرج وتحمل آثام العرب، تكبر وتكبر بعزةٍ بائسة، أشدَّ بؤساً من أي شيءٍ آخر، أقدمت الجيوش التي اتفقت أن يضيع دم الوطن بين قبائلها، على هدم مساجد الله، وكأنّها تعلن حربها على السماء، أو تنتقم منها، فكيف للإرادة الإلهيّة أن تخرج عن هوى عرش الديكتاتور؟ أن تخلق كل

هؤلاء الثوار الخونة؟ وأن تقدّر كل هذه الهزّات لكرسي العرش؟

كـان هطول الـدمـاء، وخـراب الـمـآذن، والاعـتـداء على الحرمات، يستجلب كل صور التاريخ، تتالت في رأسي مشاهد الاعـتـداءات التي تعرضت لها البحرين على مرّ الزّمان، مرّت كلّ هذه الصور في شريطٍ لم يتوقف، رأيت فيه كل الشهداء، وكل المعذبين، وكل الذين اضطُهدوا، سمعت كل الآهات، كل الصرخات، وشعرت بالألم وقد وصل إلى حنجرتي، صار لزاماً أن أبتلعه دفعةً واحدة برباطة جأش، وأن أقف صامداً مثل النخيل. ألا تراها شامخةً طوال هذه السنين رغم قساوة كل الأزمان التي مرّت عليها؟

مرّت أيام «الطوارىء» كما لو مرّ برقٌ ورعد، كان الملجأ هو الله وحـده، وبه الاستعانة على جور الظالمين، دخل المئات إلى السجن ومعهم بعض علماء الدين والرموز السياسيين، صار الناس يتظاهرون في القرى والمدن وفي الشوارع الداخليّة، فيما تنتشر الدبابات والقوات المدججة في كل مكان، وتهاجمهم بكل قسوةٍ وعنف.

اللّيل، ذلك الذي تختبىء فيه قصص الآلام والغصص وتتستر تحت لحاف السماء، صار حالكاً بالظلمة، يوسِّد أبناء الشهداء والمعتقلين وعوائلهم ويهدهدهم بأغاني العودة، ساعد على ذلك إطفاء أنـوار المنازل والمحال التجاريّة.

أصبح الموعد الليلي هو العاشرة، حيث يصعد الناس فوق أسطح البيوت ويرددون هتافات التكبير، كما لو كانوا يبثون شكواهم إلى الله، وقد لاقى هذا الأمر ما لاقى من عنف المرتزقة، إذ كانوا يدخلون إلى الأزقة في هذا الوقت ويطلقون عبوات الغاز على المنازل وفوق أسطحها، ويهاجمون بعضها ويعتقلون من فيها.

كنت أذهب إلى مسجد الشيخ سهلان القريب من منزلنا لأداء صلاة المغرب، كانت أمي تشعر بالقلق وتطلب مني الصلاة في المنزل، لخطورة الوضع، قلت لها إنهم يريدون منعنا من ممارسة حياتنا بشكلٍ طبيعي، ولا بد لنا أن نمنعهم من ذلك، كنت أتوضأ عندما جاءت مركبات القوات المرتزقة التي تتجول في القرية وتوقفت أمام المسجد بهدف التخويف، صرت أكثر اطمئناناً بأنّ المسجد قلعتي، أنا في بيت الله وضيافته، تجاهلت النظر نحوهم، ليس خوفاً أو رعباً، أو أي سبب من هذا، إنما لأتّقي استفزازهم.

في المسجد الذي كان دائماً مصدر القوّة والوعي ومبدأ الانطلاق إلى ساحة الحياة، وقفت بين يديّ الله ذليلاً، أحسستُ بالخشية والحب في محرابه، ذابت روحي على سجّادة الصلاة المزخرفة ذات اللون الأحمر، شعرت بالقشعريرة والوحشة وسكينة الوجود.

أما ليلة الجمعة وليلة الأربعاء، اللتان أصبحتا شوق

الراجين، فقد صارتا مهوى القلب، فلا ينتهي دعاء كميل إلا وتتوجه الأنظار إلى دعاء التوسل، لا زلت أتذكر في إحدى ليالي الأربعاء أثناء انشغال المؤمنين بالدعاء، هاجمت قوات المرتزقة مسجد شرف الذي يقام فيه الدعاء بعد صلاة العشاء. وكان أحدهم يردد بلهجةٍ سعودية: «صلاة فقط»، وكان يقصد أنّ المسجد للصلاة فقط، أخرجونا من المسجد وطلبوا منّا الانصراف، كنّا نمشي ببطىء إلى أن هاجمونا فركض كلٌ منا في اتجاه، في ما أخذ البعض يردد هتاف «يسقط حمد».

(8)

عندما تمّ نقلي من المخازن العسكرية إلى إدارة الأشغال، كانت وظيفتي عبارة عن مخلّص ومراسل بريد للأقسام الأخرى.

في تلك الفترة العصيبة من أيام ما يسمى بالسلامة الوطنية، طلبت مني الإدارة أن أرسل بعض الموظفين الهنود لعيادة القلعة، وهي العيادة الخاصة بـوزارة الداخليّة، والتي تتم معالجة المعتقلين والموقوفين فيها أيضاً.

يومها، التقيت هناك بالمعتقل (عبد الله المغني) أحد أبناء قريتي، فذهبت إليه وتصافحنا وتبادلنا العناق والقبلات، كان معه صديق الدراسة حسن قمبر ابن بلدة النويدرات فعانقته أيضاً ، تبادلت معهما الأحاديث وآخر أخبار الحراك الثوري وسط دهشة الشرطة المتواجدين، كانت آثار التعب والإرهاق باديةً عليهما بسبب الإضراب عن الطعام بحسب ما علمت منهما، طلبت من الشرطي الذي يرافقهما أن يسمح لعبد الله أن يتصل من هاتفي النقال لأهله، موضحاً له أنّه أحد أقربائي، فلم يمانع.

بعد انتهائه من المكالمة، تحدّثت مع عبد الله بصوتٍ منخفض ليأخذ الهاتف معه ويهربه إلى السجن لكنّه رفض ذلـك، وعندما انصرفت عنهما، أحسست بانقباض في صدري، شعرتُ بالخجل، وصرتُ ألوم نفسي لو أنّي كنت أستطيع تهريبهما من قبضة الظالمين!

هذه معاناتك في بلدك، أن تكون عسكرياً فهذا شيء لا يعجب الدولة، فأنت بالنسبة لها لا تستحق هذه الوظيفة، أو لا يمكنها الاعتماد عليك، موقفها التوجس منك، فكيف ستكون ضد أبناء جلدتك؟ وكيف ستمارس الظلم عليهم؟ بالإضافة إلى كل هذا فإنّ طائفتك مستهدفة، ولا يمكنك أن تقف ضدّها، الدولة تعرف هذا، لذا هي توظف القليل من المواطنين في وظائف مدنيّة تحت مسمى عسكري، فقط لإيجاد الذرائع أمام من لا تعرف ألسنتهم السكوت، فيما تقوم باستجلاب المرتزقة من جنسياتٍ مختلفة ليمارسوا مهماتها القذرة.

هكذا إذن، نحن أمام دولة لا تثق بمواطنيها، من دون حياء أو عمليات تجميل أو مكياج أو أية أقنعة؛ يمكنك أن ترى المرتزقة في واجهات مراكز الشرطة وخلف المكاتب، أثناء تسجيلك لمحضر فقدان شيء، أو التبليغ عن جريمة، أو أن تكون متهماً فيكون هو جلادك، وتكون أنت تحت حذائه،

وبينما أنت تكون تحت رحمته يعطيك هو دروساً في الوطنية والانتماء إلى الوطن!

لا تبدو الدولة فاقدة للحياء فقط، وإنما بلا وجه، فمن يستبدل وجهه بوجه مرتزق لا يمكن أن يكون له وجه، الحياء نقطة كما يقولون، إن سقطت سقط معها كل شيء آخر، فأي دولة هذه؟

تكون الدولة قوية بمواطنيها، ولكنها عندما تستبدلهم بالأجانب تكون ضعيفة رغم قوتها، وهي كمن يستأمن ماله لسارق قطعت يده، فالأول أحمق، والثاني كمن جاءته غنيمته دون عناء، فإن هو سرقها فليس بملوم، وإن هو أرجعها فليس لفضل استجدّ في نفسه، وإنما طمعاً في غنيمة أفضل، تلك هي معادلة الاعتماد على المرتزقة وتلك هي مآلاتها.

(9)

تبدو الذكريات الآن كشيء نعتز به، تماماً مثل الإنجازات التي أتممناها بثقة، لكنها يوم كانت تقع، كانت باردة، لم تسخن في قلوبنا بعد، ولم تُلهب خواطرنا، وهي اليوم إما أن تكون كسياط تجلدك كلما تذكرتها، وإما أن تكون كشربة ماء ترويك أوقات العطش، تروي يباس روحك وتحميك من قلق الضمير، قد لا يعرف أحد أنّك خنت، لكن ذاكرتك تعرف كل شيء!

بعد أن تمّ تفريق الثوار عن ميدان الشهداء وسط المنامة، أخذ شباب الرابع عشر من فبراير ينظمون فعاليات العودة إليه، تحدياً للإرادة التي كانت تعتقد أنها انتصرت بقوة العسكر. يومها، كانت منطقة النعيم القريبة هي نقطة الانطلاق، وكان الخيار أن أقوم أنا مع أحد الأصدقاء بشراء حاجيّات هذه العملية: نظارات لحماية العينين من الغازات المسيلة للدموع، كمامات واقية للتنفس، دروع للحماية من طلقات الشوزن.

قبل يوم من الفعالية، طلب مني الشباب إيصال هذه الأدوات إلى منطقة النعيم، لم أقع في حيرة، فالمنطقة شبه محاصرة بالقوات لقربها من ميدان اللؤلؤة، ولكنها ستكون موطئ قدمي، خطوة بخطوة إلى هناك، لأشمّ العبق القريب.

نسقت الأمـر بكل هـدوء، استعنت باثنين من العمال الآسيويين التابعين لإدارة الأشغال في وزارة الداخليّة، والذين يعملون في قسم الصيانة، قلت لهم إننا بحاجة لنقل بعض الأغراض لأحد الأقسام، فجاؤوا معي.

في الباص الخاص بالعمل، كنت أمسك بالمقود بينما ألبس بدلتي العسكرية ومعي العمال متوجهاً إلى منطقتي العكر، واثقاً أن صناعة الفارق تحتاج لمن يكسر الخوف، ويقتحم الأهوال.

عندما وصلنا إلى هناك، توقفت عند أحد المطاعم لشراء السندويشات للعامِلَيْن، بدت ملامحهما مُمتنة على ذلك رغم بعض الحرج، بعدها توجهنا نحو مكان وجود الأغراض.

تفاجأ العاملون بنوعية الأغـراض، وبكمية النظارات والكمامات والدروع، سألني أحدهم لمن تكون ولماذا يتم نقلها إلى هناك، فأجبته بأنها تستخدم من قبل رجال الإطفاء عند وقوع الحرائق، لم يقتنع بذلك وسألني مرّة أخرى عن النظارات، قلت له إنها تستخدم من قبل خفر السواحل للغوص، تداركت أسئلته بالقول إن علينا إنجاز مهمتنا بسرعة، فحملنا الأغراض وتوجهنا بها إلى منطقة النعيم.

خلال الطريق كنت مشوشاً، مرتبكاً بعض الشيء، وبدأت أفكر في سيناريو الدخول إلى المنطقة من بين كل تلك القوات المدججة، وماذا لو تم كشف الأمر، كيف سأتصرف،

بدأت أسرع دون أن أشعر بذلك، العامِلَان في صمت مطبق، لا صوت غير هدير المحرك.

وبينما كان فكري يحلق هنا وهناك، بدّده وصولي إلى نقطة التفتيش المؤدية إلى المنطقة، بدوت فجأة منتبهاً، توقفت في الطابور بقلق، العسكري يمرر سيارة ويوقف أخرى بجانب الطريق، يفتش صندوق واحدة ويستبعد أخرى، لا قاعدة تمّكنك من توقع تصرفاته.

نقطة عرق كانت في طريقها إلى السقوط من أعلى جبيني متجهة إلى طرف الحاجب الأيسر عندما سألني العسكري المسلح إلى أين أذهب، أجبته بأني ذاهب إلى مركز شرطة النعيم، طلب مني إبراز بطاقتي العسكرية فأعطيته إياها، نظر في صورتي، مرّر عينيه على اسمي بسرعة، أرجعها لي فيما هو يشير إليّ بالمرور.

من بين الرعب مررت، وأنا أردد في قلبي آية الكرسي، هكذا هي ألطاف الله، فما لم تنفذ إرادته في شيء، فإنه حتماً لن يقع.

أوصلت العمال الآسيويين إلى مركز شرطة النعيم، أنا الآن بداخل المركز، بسيارة العمل الخاصة، ببزتي العسكرية، وبكامل ثقتي، فيما أحمل حاجيّات الثوّار، لفعالية ستكون غداً للزحف نحو دوّار اللؤلؤة، ومن بين كل هذه التناقضات، شعرت بالفخر يتسلل إلى كل شريان دم يجري في عروقي، ولوهلة، أحسست أنني ثائر ولستُ عسكرياً قط!

(10)

على باب منزلنا الحديدي المزخرف، كانت يد جارنا أبي يوسف تطرق، سألته والدتي من يريد، فأجابها باسمي. عندما جاءتني أمي لتخبرني بذلك، كنت أمسح الماء عن وجهي بعد أن استيقظت من النوم للتو، خرجت إلى جاري، وبينما كنّا نتبادل التحيات كانت سيارات قوات المرتزقة تتجه نحونا بسرعة، توقفت السيارات ذات الدفع الرباعي من نوعية تويوتا أمامنا وفتح أحدهم نافذته مشيراً لي بأن آتي، اقتربت من النافذة وقلت له: نعم؟ سألني لماذا أسبّ؟ ابتسمت نصف ابتسامة، وأجبته بأني لم أسبّه ولم أسبّ أي أحد، قال: بلى، نحن سمعناك تسبّ، قلت له بانفعال واضح: من الواضح أنك تفتعل ذلك، وبما أنك موظف عسكري من المفترض أن لا تأتي بهذه السرعة الجنونية وكأنك تريد الاصطدام بنا.

عندها، فتح باب السيارة بقوة ودفعه نحوي، فيما ابتعدت قليلاً للخلف، أخذ يصرخ قائلاً: لا ترفع صوتك، وبشيء من الاستهزاء، قلت له: لماذا لا أرفع صوتي؟ هل أنت الله؟.. أنا مثلك عسكري.

بدا مرتبكاً قليلاً عندما قلت ذلك، سألني: أين تعمل؟ فقلت له: هل هذا تحقيق أم ماذا؟

حينها، ولأنه وقع في حرجٍ شديد، تـدارك أحد زملائه الموقف متطفلاً بسخرية: متىً سيقرأ الملا؟ وهو يشير إلى المأتم القريب من منزلنا، أجبته: هل أخبرك أحد بأنني أنا الملا؟ همّ هذا الأخير ليخرج من السيارة وهو يقول: هل تريد أن نركبك الدورية؟ قلت له: أين المشكلة، هيا لنركب، فذهب ليفتح الباب الخلفي، وبينما هو كذلك، نزل آخر من السيارة الأخرى متجهاً نحوي وهو يردد: اسحقوه، هيهات منا الذلة..

أدركت أنني وقعت في شباكهم، فأعطيت جارنا أبا يوسف هاتفي النقال، وقلت له بأن يخبر أمي بأنني اعتُقِلت، ذهب مسرعًا وطرق الباب وبلّغها بالأمر. خرجت والدتي تهرول وهي تصرخ: «اتركوا ولدي.. اتركوا ولدي»، وفتحَتْ باب الدورية، أحس المرتزقة بالارتباك بسبب ردة فعلها، فتركوني وشأني.

نزلت من السيارة وانصرفوا، تنفست الصعداء، وأحسست بالهواء يدخل في رئتي ويشعرني بالراحة، أنا حر وعزيز، في بلد الأحرار، وعندما أرادوا إهانتي قمت باستصغارهم.

استحضرت ما يحدث لشعبي، كجرعة مـرّة لا بدّ من تناولها، خطر على بالي المعتقلون، وأبناء الشهداء الصغار، تذكرت مشهد الملك وهو يوّقع على ورقة مطالب العلامة

السيد عبد الله الغريفي في العام 2001، تداخلت الصور مع صوت العلامة الشيخ عبد الأمير الجمري وهو يقول «ليس هذا هو البرلمان الذي ناضلنا من أجله» بعد أن تمّ فرض دستور المنحة الجديد[1]، جالت الصور وحطت في «التسعينيات»، سمعتُ في أذني طنيناً حول روايات شتى، «الثمانينيات»، «السبعينيات»، دخول العتوب إلى البحرين في العام 1783، فلم أجد نقطة بيضاء واحدة، صرت أقول في نفسي «لا تأمن لهؤلاء، فالخيانة تجري في عروقهم»!

لا أدري كيف يقبل الحكم على نفسه أن يكون خائناً للشعب، ولكن لا يقبل من الشعب أن يخونه ويحرّض ضده ويسعى من أجل إسقاطه، إنّ البادئ أظلم كما يقولون، فهم من خلال توظيف وتجنيس المرتزقة من مختلف الجنسيات إنما يهددون الأمن ويخونون الوطن والشعب، لذا صار من حق الشعب أن يدافع عن وطنه وأمنه واستقراره بمختلف الوسائل، وأن يدحر هذا الاعتداء الغاشم الذي يُمارس يومياً بحقه.

كان الشعب مستهدفاً بمختلف الأساليب في أيام ما يسمى بـ»السلامة الوطنية»، واقعاً تحت فوّهة السلاح، فقد تعرّض مئات المواطنين للإذلال والتعذيب داخل منازلهم وفي

(1) في إشارة إلى دستور العام 2002، إذ منح عددًا من الصلاحيات للملك حمد بن عيسى آل خليفة.

الطرقات والمعتقلات، في حقبة مليئة بالاعتداءات والقتل والاختطاف وتجاوز الحرمات، وهي حقبة لن تُنسى وستبقى وصمة عارٍ على جبين الحكم.

في ظلام تلك الأيام السوداء، كانت دماء الأحرار تروي شجرة الحرية، والتضحيات تعمّ كل تفاصيل حركة الشعب، كلٌ يضحي بما يستطيع، والأروع أن التضامن الاجتماعي بلغ مبلغه، فقد تعلّم هذا الشعب كيف ينسجم ويتوحد دائماً، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بمواجهة الظالمين!

(11)

ظلّ العام 2011 ثقيلاً على البحرينيين، دخل عليهم العام 2012 بنفس ما انتهى عليه عامهم السابق، الناس ترزح تحت وقع الإعتداءات، والشباب في السجون، لا شيء في الأفق سوى المزيد من التصعيد الأمني: مواجهات واشتباكات عند مداخل القرى والمناطق بين المواطنين وقوات المرتزقة، تظاهرات يشارك فيها الآلاف، مداهمات للمنازل وملاحقات للمطلوبين، انتهاكات وقتل وشهداء يتساقطون بلا توقف، إنها أعوام الثورة الأولى، ووجوه الناس فيها إصرارٌ رغم الألم.

كنت جالساً في المكتب بمركز الشرطة حيث أعمل، عندما دخل فجأة العميل خميس علي[1] وهو نقيب، فنهض الجميع لأداء التحيّة العسكرية له، إلا أنا.

حينها، كنت منشغلاً بمحادثة بعض الأصدقاء في هاتفي «البلاك بيري»، فلم أعبأ بعد دخوله وواصلت انشغالي

(1) خميس علي عميل وجلاد معروف في منطقة العكر خصوصًا والبحرين عمومًا، لم يخفِ نشاطه الإجرامي الذي اشتُهِر به منذ التسعينيات. هجم أهالي العكر على منزله وطردوه منه وهدموه بواسطة شاحنة ثقيلة، بعد أن ساهم في اعتقال وتعذيب الكثيرين من أبناء المنطقة.

متعمداً تجاهله، أحس الرجل بصفعة أتته على شكل إهانة، فوقف قبالتي ينظر إليّ وهو يكاد ينفجر غضبًا، عيناه تقدحان، حتى إن التجاعيد ظهرت على جبينه من شدة الغضب، رفعت رأسي وتبادلت معه النظرات ببأس، لم أغمض عيني إمعاناً في إهانته، عرف الوقح أنني لن أقوم لأداء التحيّة العسكريّة، فاستشاط غضباً: ألا ترى ضابطًا أمامك؟ ضحكت ساخراً: «ماذا بك؟ جئت تتصيّد؟» فجعله هذا يصرخ من قمة رأسه: «ما علموك العسكرية الأصول؟»، نهضت حينها وحملت قبعتي ودفعته على كتفه، قلت له: «اذهب للّعب مع أطفالك..».

أصبحت الأجـواء مـشـدودة، وبـدى من ينظر للمشهد مصدوماً مما يحدث، ولم يستطع أحـدٌ تـدارك الموقف، جاءني أحد الزملاء مسرعاً يلومني: ماذا فعلت؟

توجهت إلى عملي في توزيع الرسائل للأقسام الأخرى، وبينما أنا أؤدي ذلك، جاءني اتصال من المسؤول المباشر لي وهو بحراني الأصل يطلب مني العودة إلى المكتب، عندما عدت توجهت إليه في مكتبه، وما إن دخلت عليه، بدأ يصرخ في وجهي: لماذا لم تؤدِّ التحيّة العسكريّة للنقيب خميس؟ لماذا؟ قاطعته قائلاً: اسمع، لديك خياران لا ثالث لهما، الاعتقال أو الإقالة، ولن أؤديَ التحيّة لهذا الشخص.

بدا المسؤول متفاجئاً من ردة فعلي، وحـاول تهدئتي، وصار من شدة ما طبع على قلبه، أو هكذا أظن، يقول: الأمر

بسيط جداً، انظر كيف كان العباس عليه السلام يقول للإمام الحسين عليه السلام «سيدي يا أبا عبد الله»، فما المشكلة في ذلك؟ صرت أكثر تفاجؤاً مما يقوله، لم أعرف هل أضحك أم أبكي، قلت له: هل تشبّه هذا الوقح بسيد شباب أهل الجنة؟، ليس لديّ حديث آخر حول هذا الأمر، وما تريد أن تفعله افعله، أجابني والوقاحة تملأ ملامح وجهه: أنا لا أتحمّل أي مكروه سيصيبك.

انصرفت مذهولاً، فأحياناً يحدث أن تغيّر جلدك، أن تنسى مبادئك وقيمك التي تربيت عليها، ولكن أن تصبح مسخاً من أجل المنصب والمال، فهذا ما لا يمكن توصيفه، فهذه الحياة أقصر من أن تقضيها مسخاً من أجل جبهات الباطل، أو أن تخون فيها جبهة الحق، خصوصاً وأنّ الثمن بخس!

(12)

بعد حادثة التفجير الأولى[1] في منطقة العكر، استنفرت قوات النظام بكل محيطها، وأصبحت القرية محاصرة من كل جانب، ولم يستطع أحد الخروج منها أو الدخول إليها.

يومها، تلقيت اتصالاً من أحد الأصدقاء يطلب مني إخراج بعض المطلوبين للجهات الأمنية من المنطقة، قلت له: «لا بأس، سأذهب للاستطلاع وإذا حصلت على فرصة سأقوم باخراجهم». ذهبت إلى أحد مخارج القرية الفرعيّة، فأوقفني عناصر مدنيون، أخذوا يصرخون: «توقف.. توقف». توقفت مباشرة، سألني أحدهم: «إلى أين تذهب؟» أجبته: «إلى محطة البنزين».

رد باستهزاء: «محطة البنزين الآن!»

قلت له كمن لا يعلم بما يحدث: «عفواً عزيزي، ولكن أنا عسكري، هل يوجد شيء بالمنطقة؟» عندها طلب مني هويتي

(1) شهدت قرية العكر يوم الثلاثاء 10 أبريل/ نيسان 2012 تفجيرًا خلّف 7 إصابات في صفوف قوات الشرطة، وعلى إثره، فرضت قوات الأمن حصارًا على القرية واستباحتها في إطار عقاب جماعي.

فأعطيته إياها، ثم قال وهو يعيدها إليّ: «أعتذر إليك، ولكن حصل تفجير والمنافذ مغلقة لإكمال التحريات»، أبديت استغرابي من الأمر، فسمح لي بالخروج.

عندما خرجت، وجدت جيوشاً مجيشة تحاصر المنطقة، وكأنها تستعد من أجل حرب ستخوضها بعد قليل، جلتُ على جميع المخارج فلم يكن أيٌّ منها سالكاً، عدت أدراجي، فسألني عناصر الدورية ذاتها: «هل ملأتَ السيارة بالبنزين؟» تداركت الأمر بالقول، وهو ينظر إلى داخل السيارة: «لا، عندما خرجت اتصل الأهـل وهم خائفون ويطلبون مني العودة فورًا».

داخل القرية، كان الحصار يخيّم على الأهالي، والذئاب تعوي من بعيد، ما أطولها من ليلة، اتصلت بصاحبي بعد أن كنت أتلفّت خلال الطرقات، قلت له بأن يخرج، أخبرته أن الطرقات جميعها غير سالكة، وأن على الشباب أن ينتظروا ويختبئوا جيداً.

قال لي إنّه علينا تأمين أماكن لهم للاختباء داخل القرية، فقمنا بالعمل على ذلك رغم الحصار الخانق، عندما عدت للمنزل في الواحدة فجراً، بعد ليلةٍ طويلة، وصلتني الأخبار أن ملك البلاد يتوعد بالقصاص من المجرمين، وأن رئيس الوزراء يهدد بالانتقام.

كنتُ قد نمتُ في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، إلا أن

اتصالاً من أحد الأصدقاء أيقظني، كانت القوات قد بدأت حملة المداهمات لمنازل الآمنين، أخذت أمشي بهدوء حتى لا يستيقظ أحد من الأهل إلى أن صعدت إلى سطح منزلنا، صرت أراقب من الأعلى ما يحدث لإخبار الأصدقاء بمواقع المرتزقة.

كان القمر في تلك الليلة حاضراً، يشهد على ما يفعله الغزاة، فيما بدت السماء مرصعةً بنجوم مبعثرة، هادئة لولا ضجيج أحذية العسكر، تفاجأتُ بصوتٍ خلفي، أدرت طرفي فزعاً، فإذا به زوج أختي، تبادلت معه المزاح: «ماذا تفعل هنا؟ هل تتغيب في منزلنا؟» بدأ يضحك، وقال لي: «تمّت مداهمة أكثر من 40 منزلاً حتى هذه اللحظة، لكنهم لم يعتقلوا إلا 4 أشخاص».

أنعش أذان الفجر كائنات الوجود، وكان رحمة للمظلومين، بعد أن انسحبت فرق المداهمات الإرهابية من داخل القرية، مخلفين وراءهم ما تحتويه قصص إجرامهم عادة، وجوههم الكالحة وهي تنبح داخل بيوت الآمنين وتروّع الأطفال والنساء، انتهاكهم للحرمات، الشتائم وإتلاف الممتلكات.

أتى الصباح محمّلاً بأخبار الحصار والمعتقلين والمداهمات، انسلخ النهار من الليل، وجاء يوم جديد، إلا أنّ الحيرة داهمتني بشأن الذهاب إلى العمل.

بعد استخارتي للّه عز وجل وبالاتكال عليه، ذهبت إلى العمل، لعلّ ذهابي يكون لي ساتراً، إلا أنّ تعرض بعض الشباب المعتقلين للتعذيب الشديد في التحقيقات جعلهم يذكروني في اعترافاتهم، وكنت في هذه الأثناء برفقة أحد الزملاء خارج المكتب لأداء مهامي.

ورد اتصال لزميلي جميل من المكتب يستخبرون فيه عني، قال لهم إني نزلت لأداء بعض الأعمال، وكنّا حينها في مجمع التأمينات بمنطقة رأس رمان، قالوا له: «اجلبه لنا ولكن لا تخبره أي شيء، هناك أمرٌ بالقبض عليه». ارتبك جميل وخشي أن يخبرني بما يجري، فاتصل بي ليستعجل مجيئي، عدتُ إليه واستفسرت منه عن سبب استعجاله، فأجابني أولاً أن الإدارة يريدون السيارة فوراً، ولكن يبدو أن ضميره أخذ يؤنّبه بعض الشيء، فأخبرني عند اقترابنا من المركز أنّ الإدارة تريدني، اعتقدت في البداية أنهم يريدوني لأداء بعض المهمات، إلا أنّ زميلي سألني: «هل يوجد في هاتفك شيء؟» أحسست هنا بحدوث أمر ما، سألته: «لماذا؟» قال لي: «لا يوجد شيء، ولكن دعه هنا في السيارة واذهب». شككت بالأمر، فقمت بإرسال رسالة لبعض الأصدقاء بأن لا يتحدّثوا معي إلا عندما أتحدث معهم، ومحوتُ بعض الرسائل والصور من هاتفي.

عندما دخلت إلى الإدارة، بادرني الرائد عدنان القطان بوجه المكفهر: «شفيه دريسك وسخ؟»[1]، نظرت إلى ثيابي فلم أجد شيئاً، عرفت حينها أنه يقصد أنني خنت هذا اللباس، قال لي: «استرح»، فجلست على الكرسي، عيناه كانتا تنبئان بالشر، والأجواء لم تبدُ كالمعتاد، سألت مسؤولي المباشر عن سبب إحضاري إلى هنا، فقال إنّه لا يعلم، تيقنت حينها أنّ هناك أمراً باعتقالي.

خلال لحظات معدودة، دخل اثنان بالزي المدني، قال لهم القطان: خذوه لعبد العزيز الرميحي، وكان حينها مديراً لأحد الأقسام في التحقيقات الجنائية، خرجت من الإدارة برفقة المدنيين وكل ما يجول في بالي هو الهروب، لكن عدداً كبيراً من المركبات المدنية والعسكرية كانت في انتظاري في الخارج!

عندما صعدت إلى السيارة، كان السائق يتحدث في البرقية: «يبناه.. يبناه، طويل العمر..»، سمعت صوت الرميحي وهو يردّ: «أي واحد فيهم؟»، يقول له المدني بطريقة أشعرتني بشيءٍ من الفخر، وشيءٍ من الخوف، وشيء من التوجسات: «عبد الله عبد الجليل.. طويل العمر»، يـردّ مـرّة أخرى: «جيبوه»[2].

(1) أي ما به ثوبك العسكري وسخًا؟ وفي السؤال عن اتساخ الثوب العسكري اتهام للكاتب بخيانته للوطن.

(2) أي أحضروه.

في الطريق نحو «التحقيقات»، صار السجن يختمر في عقلي، مثل اختبارٍ سأخوضه الآن ولم أجهز نفسي له، أعرف أنه مدرسة بمعنى الكلمة، لكنني لم أجرّبه في السابق، سمعت عنه الكثير، وكيف أنه امتحان صعب حتى على المجاهدين في سبيل الله، فمنهم من ثبتوا، ومنهم من انهاروا، ومنهم من حادوا عن الصواب، صرت أسأل نفسي: «هل أنا مستعد لهذا الامتحان الصعب والخطر؟»

صارت المشاعر تجول هنا وهناك، تماماً مثل الدورية التي أركب معها وتجول بي في الشوارع باتجاه المبنى سيء الصيت، صوت البرقية لا يتوقف، لكنني لا أنتبه له الآن، فعقلي في مكان آخر.

قبل اعتقالي، كنت قد تحدثت كثيراً مع بعض الأصدقاء الذين تعرضوا للاعتقال سابقاً حول ظروف التحقيق وأساليب التعذيب التي مورست بحقهم، صرت أتذكر ما قالوه لي كمن يستعد لنفس التجربة: الكهرباء، الفلقة، التحرش الجنسي، وغيرها، لم يكن يشغل بالي إلا أمرٌ واحد: «هل سأصمد؟»

عندما وصلنا إلى البوابة الرئيسة لمبنى التحقيقات الجنائية، أصبح حديث النفس مع الرجاء الأعلى، مع الله سبحانه وتعالى، وكان دعائي واحدًا، أن أصبر الصبر الجميل.

أخذت نفساً عميقاً، جلت بنظري في السماء، كان شيئاً ملبداً فيها، رأيت أمنياتٍ كثيرة، ولوهلةٍ صارت نفسي تقول

الآن: «هذه ضريبة الثورة التي لا بد من دفعها، ولا بد من التضحية، ولا بد من العذاب والآلام». كانت الخيارات أمامي واضحة بشكل وكأنّه كُشِفَ لي الغطاء: النصر أو الشهادة.

كانت رجلاي تخطوان نحو المصير المحتوم، لكنَّ رجاءاتي المعلّقة بأستار السماء، أشعرتني برحمةٍ غامرة، فلم تحدثني نفسي بخوف، أو بتراجع، أو أسف، إنما تذكرت عذابات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وآلام أهل بيته عليهم السلام، تذكرت عمار بن ياسر وأمه سميّة، تذكرت الإمام موسى الكاظم عليه السلام الذي سُجن لسنوات طويلة ونال الشهادة مسموماً.

بدا الطريق طويلاً، مباني مختلفة وممرات وأبواب ومكاتب متعددة. قبل دخولنا، سعى المرتزقة للإيقاع بيني وبين نفسي، بدأوا يلومونني على ما فعلته، ويقولون بأنني خسرت وظيفتي ومستقبلي، وأنّ الجميع يتمنّى هذه الوظيفة التي فرّطتُ بها، أمّا أنا فكنت أمشي وأستهزئ بهم في داخلي، تعلو شفتاي ابتسامة من رزق الله، ويقين بأنني أمشي في طريق النصر.

(13)

عند التحقيق، انتظرنا طويلاً حتى جاء الأمر بإدخالي إلى المبنى، كان المبنى خالياً إلا من أشباح التعذيب التي مرّت من هنا، على كل جدار، وفي كل زاوية، ترى آثاراً لا تُرى لعذابات طالما تلذذ هؤلاء بممارستها، تشاهد أرواحاً ترفرف بعد أن أُزهقت من دون وجه حق، وتسمع صرخات مظلومين، حتى تلك الرجاءات الداخليّة التي تبلغ ذروتها هنا، صرت أقرؤها في الأثير.

هذا هو مبنى التحقيقات إذن، العلامة المسجلة في تعذيب أبناء الشعب وإذلالهم وتركيعهم، ووجه السلطة الحقيقي، من دون «رتوش» أو مكياج أو أقنعة، هنا ما لا عينٌ رأت ولا خطر على قلب بشر!

صعدنا عبر الدرج إلى الأعلى، المكان هنا أكثر قتامة من الأسفل، أجلسني الشرطي في مقابل موظف استلام الأمانات، عندما شاهدني هذا الأخير بزيي العسكري وقف لمصافحتي، ربما لم يعرف بعد أنني معتقل، سألني ماذا أشرب، فشكرته، إلا أنه أصرّ وطلب لي شاياً، شعرت بشيء من الاطمئنان،

إلا أنّ شعوري هذا لم يدم سوى بضع ثوان، وصلني الشاي فبدأت أرتشف منه قليلاً، فجأة عاد الشرطي الذي يرافقني فرأى الكأس في يدي، تماماً في اللحظة التي كنت أعيدها إلى الطاولة، أخذ يصرخ على الشرطي الآخر: «لماذا أعطيته الشاي؟» عندها أمرني هذا المرافق النحس بأن أقف وأستبدل زيي العسكري بملابس مدنية، وأن أعطي الأمانات للموظف الذي يجلس أمامي، صادر محفظتي ومفتاح سيارتي وسألني عن الهاتف النقال، فقلت له إنني تركته في سيارة المركز.

بمجرد أن أنهيت تبديل ملابسي العسكرية، وقعت يدٌ على رقبتي بقوة وأدارتني نحو الحائط، كان هذا هو مرافقي، مسك بيديّ وأدارهما إلى الخلف وكبّلهما بـ«الهفكري»[1]، ومن ثم غطىّ عيناي بالصماد، وأخذ يصرخ: «يابووه، يابووه مال العكر».

هنا بدأت فعلياً أجواء التعذيب الجسدي والنفسي، قبل أن أدخل إلى هذا المبنى المشؤوم كنت قد تعاهدت مع نفسي على الصمود، وأنه في حال تم ضربي فإني سأرد الصاع صاعين، إلا أن الخوف احتل قلبي، صفعني أحدهم فسقطت على الأرض، يبدو المكان من حولي واسعاً، هكذا أشعر، وعندما سقطت انقضّوا عليَّ مثل مجموعة من السباع حول فريسة واحدة، كلٌ يركل برجله في نحوٍ من أنحاء جسدي،

(1) الاسم الذي يطلقه السجناء في معتقلات البحرين على القيود الحديدية.

بدا أحدهم وكأنه فقد عقله لكثرة ما صرخ «خائن.. خائن.. خائن»، أخذتُ أصرخ كذلك، وأفحص برجلي، حتى خارت قواي، ألسنتهم الحادة والوسخة تسبق أرجلهم في الإجهاز عليّ، شتائم وكلمات نابية وسُباب، هذه هي الوجبة الأولى.

أحسست بتفرّقهم فجأة، يبدو أنهم تعبوا هم أيضاً، عندها جرّني أحدهم وأدخلني إلى غرفة ما، صرت في مقابل صوت جاءني من أمامي يسألني: هل أنت عبد الله عبد الجليل؟ فأجبته والتعب أخذ مأخذه مني: نعم، سألني مرّة أخرى: هل تعلم بماذا أنت متهم؟ قلت: لا أعلم، تم أخذي من العمل ولا أعرف ما هو السبب، فقال وهو يصرخ: أنت متهم بـ«تفجير العكر»، لم أحر جواباً، قلت: أنا أعمل كعسكري، ولا مصلحة لي في هذه الأعمال!

لم يمهلني شيئاً، أخذ يصرخ: «عمليات.. عمليات»، لم أعرف في البداية ماذا يقصد، إلا أنهم عندما أمسكوني من جانبيّ، قال لهم الجلاد بأن يرفعوا رجلاي، اقترب مني فشعرت بأنفاسه القذرة:

ـ «هل أنت عسكري؟»

ـ « نعم».

ـ «ولاؤك لمن؟»

ـ «للبحرين..»

ـ «وجلالة الملك؟ ليس لديك ولاء له..»

ـ «بلى..»

ـ «قلت بأنك عسكري..»

ـ «نعم..»

ـ «هل تعلم ما هي عقوبة العسكري الخائن؟»

ـ «أعلم جيداً، ولكني لستُ خائناً.. هناك لبس في الموضوع..»

هنا بدأ يمسح بالعصا على قدميّ، فيما يكمل حديثه:

ـ «نحن نعلم جيداً بأنك أحد المخربين.. منذ فترة طويلة ونحن نراقبك..»

ـ «والله لا دخل لي بمثل هذه الأمور».

عندها بدأ يضرب على باطن القدمين ببطء، اقترب مجدداً:

ـ«أريد أن أسمع كلمة «ولائي للملك» مع كل ضربة..»

صرت أقول «ولائي للملك» مع كل ضربة، وأصرخ.. علّ صراخي يقلل من هذه الوجبة فأخرج بلا أي اعترافات، توقف الجلاد فقلت في نفسي أن خطتي نجحت، سألني:

ـ «هل ستعترف الآن؟»

ـ «والله العظيم لا أعرف شيء..»

ـ «عمليات.. عمليات..»

عندما جاؤوا، أمرهم بأخذي إلى غرفة الانفرادي، والتي تسمى كذلك بغرفة الثلاجة، تركوني لبعض الوقت هناك، واقفاً على رجلي المتعبتين، مكبلاً بقيود ضيقة، وعيناي يملؤها ظلام السجن، أخذت أحدث نفسي بتغيير شخصيتي والمبالغة في إظهار الخوف والرعب حتى تقل وجبات التعذيب، أما روحي فكانت منجذبة إلى الأعلى، «ساعدني يا الله..»

لوهلة، تم فتح الباب، تقدم أحدهم نحوي ووقف خلفي دون أن يتحرك، بدأت أستعد لما سيفعله بي، وأنتظر الضربات، كان الصمت يعم المكان، فيما أستمع أنا لحسيس الأشياء، شعرت أن حواسي تعمل بكل طاقتها وكأنها المرة الأولى التي تعمل فيه، عندما تتعطل حاسة البصر، فإن الحواس الأخرى تعوض هذه الحاسة باستشعار الأشياء على نحوٍ جيّد، هكذا يحدث معك وأنت مغمض العينين.

مرّت فترة والشخص الذي دخل الغرفة لا زال واقفاً خلفي، تبادلت معه أحاديثاً من الصمت، كنت أقول له إنهم مهما فعلوا فلن يتراجع هذا الشعب، كان يتحداني بقوله: «سوف نرى..» ولكي يفزعني، فاجأني بالصراخ في أذني فتبدد صمت المكان، بادرني برميي على الأرض وأخذ يركلني في كل مكان، كان يركز على منطقة الخصيتين.

أخذوني مرّة أخرى إلى غرفة المحقق الجلاد، سألني عن هواتفي النقالة، اعتقدت أنني عندما أقول إنهم في سيارتي سوف يتناسون الموضوع، إلا أنه أمرهم أن يأخذوني إلى سيارتي في العمل، قادوا سيارتي إلى مبنى التحقيقات، وفتشوها تفتيشاً دقيقاً فلم يعثروا على أي شيء، كنت أحاول قدر الإمكان إخفاء موقع هواتفي، حتى لا يطلعوا على محادثاتي مع بعض الأصدقاء الحركيين.

عاودوا أخذي من جديد إلى المحقق الذي أخذ يصرخ ويسأل عن مكان هواتفي، فقلت له إنني صرت أهلوس وأعتقد أنهم في المنزل، عندها تعالى رعيده مرّة أخرى: «هل تستهزئ بنا؟.. عمليات.. عمليات..» جاءت فرقة العمليات وأشبعتني ضرباً وركلاً، ثم بعدها سألني عن عدد من أبناء قريتي، وبعضهم من الأسماء الناشطة في الحراك الثوري، وكان يأتي على ذكر بعضهم بألقابهم المتداولة، صرت أنفي علاقتي ببعضهم، وأدّعي أنني تعاركت مع البعض الآخر لأوحي بذلك بأنّ اعترافاتهم كانت من أجل الانتقام مني، حيث كان بعضهم معتقلاً على ذمة نفس القضية التي اعتُقِلت فيها، ولشدّة التعذيب الذي تعرضوا له اعترفوا عليّ.

طالت أسئلته عن أبناء القرية، وأصبح يفصّل أكثر، ويقول إنَّ المئات من الذين دخلوا إلى هنا، نفوا في البداية علاقتهم بالقضايا التي اعتُقِلوا على ذمتها، لكنهم اعترفوا، موجهاً

نصيحته لي بأن أختصر الطريق، أما أنا فكنت مصرّاً على عدم معرفتي بهم، أو أحياناً أقول بأني أعرفهم بشكل سطحي، أو أعرف إخوانهم أو آبائهم، حتى أنه استجوبني عن علاقتي بزوج أختي وهو أحد المطلوبين أمنياً فنفيت معرفتي به، وكنت أخشى أن يعرف أنه زوج أختي وينهال عليّ بالتعذيب.

وخلال طرحه للأسماء، وصل إلى اسم المعتقل علي رضي، والذي هو ابن خالتي وصديق عمري، فقلت له بأن ما يربطني به هو علاقة نسب فقط، سألني حينها عن علاقة النسب، فأجبت أنه ابن خالتي، كنت أخشى أن لديه معلومات حول علاقتي به، فهو من المقربين لي، لكنه لم يذكر شيئاً، إلا أنه واجهني بما هو أهم من ذلك: «علي هو من جاء بالقنبلة، وأخبرك عنها وذهبتما معاً لشخص اسمه عبد الصادق وهو الذي شرح لكم كيفيّة العمليّة».

أجبت بسرعة: «غير صحيح..»

عندها، أمر بإخراجي، وتم إدخال أحد المعتقلين، فقال له المحقق تحدث، سمعته يتحدث بصوت منهك: «علي رضي قام بشراء الأسلاك الكهربائية وتوجه لمنزل عبد الله، وذهبا إلى عبد الصادق وتعلما صناعة القنبلة ومن ثم قاما بزراعتها ونفذا التفجير».

عندما سمعت ذلك، صرت أقول في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون..

أدخلوني إلى المحقق مرّة أخرى، فقال لي: ماذا تقول في كلام زميلكم؟ قلت: غير صحيح، وأقسم أنه لا دخل لي في هذا الأمر، رفع يده وصفعني لتنهال عليّ بعدها فرقة العمليات ركلاً وضرباً مبرحاً، أحسست أن روحي ستفارق إلى بارئها، لولا أنهم توقفوا وتوجهوا بي إلى زنزانة الانفرادي، حيث أمروني بالوقوف على رجليّ، كنت منهك القوى، والآلام تداهم كل أعضاء جسمي، وبمجرد أن خرجوا من الزنزانة رميت بنفسي على الأرض، أحسست بشيء رطب بين رجليّ، نجحت في رفع الصماد عن عيني، شاهدت بقعة من الدم على سروالي، اعتقدت في البداية أنهم جرحوني في فخذي، إلا أنني اكتشفت أنّي كنت أتبوّل هذا الدم، قمت بمناداة الشرطي فجاء لي، رآني مستلقياً، هتف مستنكراً: لماذا تجلس؟ قلت لك قف على رجليك.. قلت له بأنني أتبوّل دم، فقال على هيئة المستغرب، وبلهجة دارجة: «صجّ؟» فأجبته: نعم.. كنت أعتقد من ملامح وجهه أنه خشي أن يصيبني مكروه، أخذ يصرخ: عمليات.. عمليات.. اعتقدتُ أنهم يحاولون تدارك أمري، ولكنهم عندما جاؤوا رفع رجليه لينهال على منطقة الخصيتين ركلاً وهو يقول لهم: يتبول دم.. يتبول دم.. فأحاطوا بي وأخذوا يشبعوني ركلاً مثل حشرة لا قيمة لها، ولا بد لهم أن يسحقوها، لا لغة للتحدث معها سوى لغة الأحذية والصفعات والضرب، هذا ما يقولونه فعلاً لكل

إنسان يدخل ذلك المبنى المشؤوم: «لا إنسانية لك، لا حقوق لك، لا تستحق شيئاً».

في اليوم التالي، أخذوني إلى الباحة الخارجيّة للمبنى، نظرت من أسفل صمادي[1]، والـذي صار صديقاً عزيزاً، فوجدت أنّ الليل خيّم على الأشياء، ألقوني على الأرض لفترة، كانت أصوات البرقيات تتداخل مع بعضها ولا تفارق المكان، أخذت أتلصص فشاهدت دوريات كثيرة وأضواء زرقاء وحشد من القوات، كانوا يتداولون أخباراً حول ما يحدث بقرب دوار ألبا، صارت أذناي منشدتان لأحاديثهم لمعرفة ما يجري، عرفت مما يتداولونه أن مجموعة من «البلطجية» زحفوا لدوار ألبا من أجل مهاجمة منطقة العكر، وأنهم هاجموا برادات جواد الواقعة بمحطة الوقود.

بقيت مرميّاً على الأرض لمدّة، لا أعلم بالضبط لماذا أخرجوني، وكنت أتوقع أنهم سيرسلوني إلى جهاز أمن الدولة لممارسة التعذيب بشكلٍ أبشع وأشد.

بعد حوالي نصف ساعة، جاءني أحدهم وسألني ما هي صلة القرابة بيني وبين علي رضي، أجبته بأنّه ابن خالتي، فأمر قواته بأن يأخذوني لأدلّهم على منزل خالتي، فقلت في نفسي: «ذلك على جنازتي»، قلت له: «صحيح أنه ابن خالتي، لكنني لا أعرف أين يقع منزلهم»، استشاط غضباً

(1) الاسم الذي يطلقه السجناء في البحرين على العصبة التي توضع على العينين.

فرفع رجله وركلني على وجهي، شعرت بالدوار، ومن ثم أخذ بقية العناصر يجروني إلى الداخل فيما كان يطلق ألفاظاً نابية وسباباً بذيئاً، أجلسوني على كرسي ووضعوا في إبطي عصا، لوهلة اعتقدت أنهم سيعذبوني بـ»الفلقة»، كنت منهك القوى ولم أذق طعم النوم منذ تلك الليلة التي حوصرت فيها قريتي، كان يردد: «لا تعرف منزلهم؟» وأنا أكرر الجواب ذاته: «لا أعرف شيئاً»، قاطعتني الكهرباء التي ألقتني خائراً، صارت نفسي تصارعني بالاعتراف بكل شيء، إلا أن نداءً داخلياً كان يقول لي: «اصمد قليلاً وتحمل هذه الأيام القليلة من أجل أن تخرج بريئاً»، تقاطعه أفكار أخرى: «هذه الأحكام تأتي من الأعلى ولا فائدة من الصمود وتوقع البراءة»، كانت هذه المشاعر المتناقضة تأتي وتذهب مع كل نوبة تسري فيها الكهرباء في جسدي، صرت أصرخ وأبكي: «سأموت.. سأموت..» أحسست أن عيني ستخلعان من مكانهما، وأن عظامي تضرب بعضها بعضاً، وبدا أنني أقرب إلى الموت، الذي يبدو أنه الأسهل من بين كل ما يجري!

جاء شخص يهرول لهذا الحاقد الذي بدا وكأنه صمم على قتلي، وأخذ يُهَدئه ويقول له «هذا عسكري»، في إشارة إليّ، وكأنه يقول له بعبارة أخرى: «لا نريد أن نتورط بدمه»، هذا ما استنتجته.

أرسلوني لزنزانة الانفرادي الباردة مرّةً أخرى، طاقتي

نفدت ولم أعد أتحمل هذا البرد القارس، طلبت منهم نقلي إلى مكانٍ آخر، وألححت في ذلك، لم يستجب أحدٌ لي إلا عندما تبدّل الأشخاص وجاء أشخاص آخرون، حيث رآني أحد أفراد الشرطة من الباكستانيين أرتعد من البرد، سألني هل أريد شيئاً لآكله، قلت: «لا وإنما فقط أريد أن تقللوا البرودة»، فكّ قيودي ووضعها من الأمام ونقلني إلى غرفةٍ أخرى أقل برودةً من الأولى، قال لي إنّه بإمكاني الجلوس بدل الوقوف، غفوتُ قليلًا، وجاء لينقلني إلى الغرفة السابقة، بعد وقت قليل جاءت مجموعة لتواصل الضرب والركل والشتم.

لم يكونوا يسمحون لي بالصلاة، وكانوا يرفضون هذا الطلب بشكلٍ وكأنني لست مسلماً، لم أكن أعلم بدخول الأيام الجديدة إلا عندما يتبدل المحقق، ذلك أنني لا أرى الليل ولا النهار.

تمّ استدعائي مجدداً للجلاد فواز العمادي، حاول هذا الأخير استدراجي، فذكر لي معلوماتٍ كانت دقيقة حول مكان اجتماعاتنا، وبعض الأسماء التي تحضرها، ثم سألني: «ألم تكن يوم الجمعة في منزل فلان تقومون بإعداد الزجاجات الحارقة؟» لشدة دهشتي، شعرتُ وكأنّه ألقمني حجرًا. كم كانت معلوماته دقيقة! أجبته أنَّ هذا الأمر غير صحيح، وأنَّ هذه المعلومات كما يبدو انتزعت من أحد المعتقلين تحت

الضغط لإلقاء المسؤولية علينا، عندها استشاط غضباً وأخذ يصرخ ويوجِّه إليَّ كلماتٍ بذيئة.

خرجت من غرفته إلى الزنزانة الانفرادية، لم تمض دقائق إلا ودخل رجال العمليات وأخذوني إلى غرفةٍ أخرى أصغر حجماً، أعطوني جزءًا من الأوراق التي كتبت فيها أقوالي، نظرت إليها بشكل سريع، فوجدت أن أكثرها كتب كما جاء على لساني في التحقيق، وقّعتُ الأوراق ومن ثم أخبرني أحدهم أننا سنذهب إلى النيابة العامة الآن، لوهلة تنفست الصعداء، وشعرت أنني تخلصت من عبء كان سيكون قاتلي.

(14)

بعد أربعة أيام قضيتها تحت سوط التعذيب الوحشي في التحقيقات الجنائيّة، تم التحقيق معي في النيابة العامة وإرسالي إلى سجن الحوض الجاف في 14 أبريل/ نيسان 2012، أخذني رجال المباحث في سيارة مدنية مظللة إلى هناك.

في الطريق، كنت أنظر للشوارع كما لو أنني لم أرها منذ مدّة طويلة، كانت الأيام الأربعة التي قضيتها في «التحقيقات» كما لو أنها دهر، تبدو بلادي جميلة، لكنّها مجروحة، تماماً مثل عروس كلّما حان موعد زفافها جاءت نُذُر المآتم[1]!

فور وصولنا إلى سجن الحوض الجاف، رأيت اثنين من أبناء قريتي عند البوابة ففتحت نافذة السيارة بسرعة وسلمت عليهما. وكنت أريد من ذلك أن يوصلوا خبراً إلى أهلي أنني وصلت إلى الحوض الجاف، فما كان من رجل المباحث الذي يجلس في المقعد الخلفي معي إلا أن انهال عليّ صفعاً وصراخاً، تمالكت نفسي وحدثتها سرًا أن الانتقام قادم لا محالة.

(1) في إشارة إلى سرعة حدوث المصائب.

خرج الشرطي من غرفة البوابة وألقى نظرة، عرف أن السيارة تابعة للمباحث ففتح البوابة، أخذت السيارة تسير إلى الأمام ثم انعطفت إلى اليسار، كنت أقلب طرفي على المباني التي تشبه في سقوفها الأكواخ، والتي كانت سكناً للعمال في سنوات غابرة، ثم تحولت سجناً إلى أبناء الشعب، تتوزع بشكل منتظم بقرب بعضها البعض، أحسست بالحيوات المكبّلة في داخلها، وشعرت بضجيجها.

توجهت السيارة إلى العيادة، وأمام بابها توقفت لتطأ قدمي أرض الحوض الجاف لأوّل مرّة، عندما نزلت من السيارة أحسست بإرهاق التعذيب يدبّ في جسدي، دخلنا فالتقيت بالمعتقل ناجي فتيل[1] وشخص آخر من قرية النويدرات، تبادلنا التحيات فأخذ ناجي يسألني عن أحوالي وإن كنتُ «صمودًا»[2]، ابتسمت رغم التعب، أكدت له أنني كذلك، انتبه رجل المباحث أنني أتحدث مع ناجي فأخذني للخارج، سألني هل تربطني علاقة به، نفيت معرفتي به، وقلت له إننا تبادلنا الأحاديث لأننا نجلس بجانب بعضنا البعض، لا أكثر

(1) ناجي حسن فتيل بحريني ناشط في مجال حقوق الإنسان، وعضو مجلس إدارة جمعية البحرين لحقوق الإنسان. سُجِن وعُذِّب منذ العام 2007، وكان هدفًا لتهديدات بالقتل خلال احتجاجات العام 2011. في 2 مايو/ أيار 2013، اعتُقِل فتيل من قبل قوات الشرطة أثناء تواجده في منزله. وفي مايو/ أيار 2014، أيّدت محكمة الاستئناف حكمًا ضده بالسّجن لخمسة عشر عاماً. كان فتيل ولا يزال موضوع نداءات عاجلة من قبل المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، والمقرر الخاص المعني بالمدافعين عن حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.

(2) أي إن كنت قادرًا على الصبر والتحمل وسط الظروف السيئة في السجن.

ولا أقل، أمرني أن أدخل ولا أتحدث معه بكلمة، في هذه المرّة كان ناجي قد دخل على الطبيب.

في العيادة، يبدو كل شيء بارداً، باهتاً، بدءًا من الإضاءة التي لم تعد تستوعبها عيني الناعسة، وليس انتهاءً بالطاولات والكراسي التي لطالما جلس عليها الأحرار، ورغم أنها مثل أي عيادة عادية في الخارج، إلا أن هذه العيادة البائسة لا تبدو لك، وإنما عليك!

عندما دخلت إلى الطبيب، سألني هل أعاني من شيء، أو مرضٍ معين، قلت له إنّه لديّ التهابات في البول وأتبول دماً جراء التعذيب، وأريته آثار التعذيب في جسدي، لم يبدُ هذا الطبيب متأثراً بما أقول، لم تتغير ملامح وجهه، الخطان بين الحاجبين لم يتغيرا، لم أهتم بذلك فعلاً، إلا أن نتيجةً واحدة يمكنك أن تتوصل إليها من ذلك، أن ما أقوله الآن قيل مئات المرات، وبنفس الطريقة، أو ربما بطرقٍ مختلفة، ولا يستدعي الدّهشة!

أجرى الطبيب لي بعض الفحوصات، ووصف لي بعض الأدوية، ومن ثم خرجنا من هناك، وكنت أظن أنهم سيدخلوني واحداً من هذه المباني المليئة بأبناء شعبي الأعزاء، تفاجأتُ أن الأمر ليس كذلك، وعندما كنت أُنزل رأسي لركوب سيارة المباحث مرّة أخرى، كان القمر الحزين يطل في السماء كشيء لا بد له أن يكمل المشهد، ويضيء الأفق بسكون، وفيما يغفو

وطني قلقاً في ظلام ليل بهيم، ويستيقظ متلفتاً ذاعـراً بين إغفاءةٍ وأخرى، تبدو الشمس بعيدة عنه بمسافة بعمر وطن!

في منتصف ليلةٍ باردة من ليالي نيسان، وصلت إلى مكان أسري، أدخلوني عنبراً مكتظاً بالسجناء الجنائيين، وكنت حينها متعباً وجائعاً، لم آكل خلال الأيام الأربعة التي قضيتها في «التحقيقات» غير وجبة واحـدة، دخلت كالغريب، لم يستقبلني أحد، وكنت أشعر بانقباض صدري من المكان.

ولمّا لم أجد من يرشدني، ذهبت إلى غرفة الاستراحة التي يجتمع فيها السجناء، ألقيت التحية فرد الجمع المتواجد هناك بتثاقل، كانت سحابة من دخان السجائر تجوس خلال المكان فتبدو الوجوه غير واضحة، سألوني هل أنا جديد، فأجبتهم نعم، فسألوني مرّة أخرى عن قضيتي، فقلت: قضايا سياسيّة، عندها أشاحوا وجوههم عني وعـادوا لأحاديثهم ولعب الورق!

رأيته يطفئ سيجارته ذات العود الأحمر قبل أن يقترب مني، قال لي: «لقد سألني عنك ابن عمي»، سألته من يكون ابن عمّه، فأجاب أنه مرتضى من المنامة، تعرفت عليه دون أيّة تفاصيل إضافيّة وأبلغته أن يوصل له السلام، غاب من أمامي برهةً وجاء لي بالعشاء، وبينما هو يتحدث معي حول توقعه بنقلي لعنبر السياسيين ويخبرني بتهيئته مكاناً لي في غرفتهم، ووجود هاتف نقال، كنتُ ألتهم ما وضعه أمامي بنهم!

صباحاً، اتصلت بالأهل لأخبرهم بوجودي في السجن، وأطلب منهم جلب ملابس لي سريعاً. هذا هو اليوم الخامس لي من دون استحمام، كما أنني لم أقضِ الصلوات الفائتة التي مُنعتُ من أدائها، وعندما أنهيتُ كل ذلك، صرت أقرأ القرآن الكريم في باحة السجن الخارجيّة، سمعت صوتاً يناديني من عنبر السياسيين، كان الباب الحديدي المطل على العنبر الآخر واسع الثغرات في جوانبه، فأخذت أنظر عبره وأتحدث، تعرفت على الشخص الذي حدثني بمجرد أن رأيته، هو أحد المعتقلين العسكريين الذين ذهبوا بزيهم العسكري إلى دوار اللؤلؤة، أبدى استغرابه من معرفتي له، على الرغم من عدم معرفته لي، تعارفنا وتبادلنا الأخبار، وأخبرته بما جرى مؤخراً في منطقة العكر، فتفاجأ بما جرى، وطلب مني أن أطلب من الضابط نقلي لعنبرهم في أقرب وقت.

بعد ثلاثة أيام، استدعاني الضابط للتّعرف على المعتقل العسكري الجديد، خصوصاً وأنّ جهة التسليم هي التحقيقات الجنائية، وهو ما يثير فضول الضباط لمعرفة القضية وتفاصيلها، إلا أنهم لا يقدمون ولا يؤخرون[1]، فهم مجرد ضبّاط عاديون يديرون سجن التوقيف، سألني عن اسمي ومنطقتي والقضية التي اعتقلت بسببها، ذكرت له كل ذلك، فسألني هل أنا فعلاً من يقف وراء التفجير، فسألته بعفويّة: وهل ستصدقني

(1) مقتبسة من العبارة الشعبية: «ما بيقدم وما بيأخر»، أي أنّه لا يحدث أي تأثير.

إذا أجبتك بالنفي؟ فقال: هناك تحريات وهناك نيابة عامة، فقاطعته بالقول إنّ ما حدث ليس تحريات وإنما تمشيط للمنطقة، حيث تمّت مداهمة أكثر من 40 منزلاً، عندها أخذ يحرك رقبته، وبدا حديثنا من دون جدوى، فقال لي: «نحن هنا إدارة منفصلة، ونتعامل مع النزلاء على أنهم أبرياء حتى تثبت إدانتهم من المحكمة، وعند ثبوت القضية يتم نقلهم إلى سجن جو المركزي»، أخذ يقول ذلك وأنا أُحَرّك رأسي وكأن الأمر جديد بالنسبة لي، لم أُبدِ أي ردة فعل، سألني: هل تريد شيئاً؟ قلت: «نعم، أريد حجز موعد لزيارة الأهل، وأريد أن تنقلوني إلى عنبر السياسيين»، انفجر ضاحكاً، ثم تراجع صوت ضحكته بشكل سريع، وقال لي: «ليس لدينا معتقلون سياسيون هنا، كلكم جنائيون». فقلت: «إنّ وزير الداخليّة يقول ذلك، ولكن لماذا تفصلون بين العنبرين؟» استنكر حديثي: «ومن قال لك إن هؤلاء سياسيون؟» لم أشأ أن أواصل الجدال فيرفض طلبي، قلت: «سمّهم ما شئت، المهم أن تنقلوني معهم». فأَمَر الشرطي أن ينقلني إلى العنبر الآخر، وحَجزَ موعدًا للزيارة.

بدا الضابط متعاوناً، على الأقل ليس كأولئك الذين تلتقي بهم في «التحقيقات»!

مرّت الأيام بسرعة، وقد شعرت بالراحة والانسجام بعد

نقلي إلى عنبر السياسيين، أحاديث ونقاشات ومسامرات وكتب، شيء من الألفة والدعابة والأجواء الإيمانية.

بلغ الشوق مداه حتى يوم الزيارة، حيث التقيت بأسرتي في 20 أبريل/ نيسان من العام الثاني للثورة، كانت أمي تجهش بالبكاء فطمأنتها وهوّنت عليها الأمر، أنا بصحة جيدة يا أمي العزيزة، ولا أريد لهؤلاء المرتزقة أن يشاهدوك وأنت تبكين هكذا، أنتِ قوية، هدأت عندها أمي، فبدأتُ أتحدّثُ عن بعض ما جرى لي في «التحقيقات» من دون أن أذكر كل شيء مراعاة لمشاعر أمي وأسرتي، أخبرتهم أنني صامدٌ ولم أتأثر بما جرى لي، وواثق من أن الطريق الذي سلكته هو الطريق الصحيح.

في نهاية الزيارة، أوصيت أمي بالصبر والصمود، وهمست في أذنها بأن لا تقلق عليّ، كما طلبت منها أن تكون كالسيدة زينب وأمها الزهراء عليها السلام، فهم القدوة.

كان الوقت خاطفاً، شممتُ فيه رائحة أمي، فأعادت لي توازني. يكفي أن تكون لك أم، لتكتفي، بعدها، سواء كنت في السجن أو في قصر هارون، لا فرق، أمك هي حزام ظهرك أمام كل تحديات الحياة.

عدت إلى زنزانتي وانصرفت للحديث مع الرفاق، ولوهلة، بدأتُ بتهيئة هاتفي النقال الجديد الذي هرّبته للتوّ لكي يعمل،

ما إنْ بدأت الشاشة تضيء حتى وصلني خبر اعتقال زوج أختي الذي اقترن بها مؤخراً، مع اثنين آخرين من منطقتي!

ذات يـوم، وبعد عودتي من المحاكمة الصورية التي يجريها القضاء البحريني وتأتي أحكامها من عند الجلادين، والتي كنت أذهب لجلساتها لمجرد الخروج وتغيير الجو وملاقاة الأحبة، أو محاولة الهرب إنْ وجدت الفرصة، بعد دخولي للعنبر متعباً، وبينما كان الشرطي ينزع الهفكري من يدي، استقبلني بلكنته البلوشية[1] بالقول: «ما هي أخبار هاتفك الأسـود؟» ارتسمت حينها الدهشة على وجهي، وصرتُ أتساءل كيف عرف ذلك، اعتقدت في بداية الأمر أنه يختبرني ليرى ردة فعلي، أجبته: «يا ليت كان لدينا هواتف هنا»، واجهني بلغة حادّة: «هاتفك الأسود توجد به صورة لك وأنت تحمل كاميرا»، ازدادت دهشتي، عرفتُ حينها أنهم عثروا عليه.

بمجرد أن انتهى الشرطي من نزع القيود، توجهت للداخل، وبينما كنت أمشي إلى هناك، رأيت أحد الرفاق المعتقلين واقفاً بالقرب من الباب من الداخل، ممسكاً بالقضبان، سألته: «هل صحيح أنهم عثروا على الهاتف؟» أجابني والحزن يكسو وجهه البيضاوي الوسيم: «لقد جـاؤوا صباحاً بعد

(1) في إشارة إلى كون العسكري ينتمي للقومية البلوشية، وهو من الأجانب الذي تستقدمهم السّلطات البحرينية وتوظّفهم في سلكها العسكري.

خروجك إلى المحكمة وفتشوا الزنازين بشكلٍ دقيق، وعثروا على اثنين من الهواتف، ولم يبقَ سوى هاتفٌ واحد». قلت له: «لا بأس سوف أتحمّل مسؤوليتهما». عدتُ حينها إلى الشّرطي وأخبرته أنّ الهاتفين ملكي، وأنا الذي أدخلتهما، شكّك بدايةً في الأمر: «هذا غير معقول، أنا لست سجيناً وأستخدم هاتفاً واحداً، وأنت سجين وتستخدم هاتفين!» قلت له: «نعم، وأسعى لإدخال جهاز كمبيوتر كذلك!» ثم سجّل إفادةً باعترافي أنّهما تابعان لي.

(15)

لا يعرف الإنسان الحياة بشكلٍ جيّد إلا عند مروره بالتجارب، والسجن واحدٌ من هذه المنعطفات، لا يمكن له إلا أن يصنعك، ويضيف إليك الكثير، تُقَدّم لك نموذجاً سيئاً، أو نموذجاً صالحاً. وما لم تدخله، تبقى هناك طبقة ناقصة من طبقات نظرتك إلى الأشياء. أفقٌ واحدٌ ومتعدّد في نفس الوقت نائمٌ في قلبك، لا يوقظه سوى السجن.

في السجن، يبدأ امتحانك من فقدانك لخصوصيّتك، سيكون من الواجب عليك أن تتحمّل الرفاق قبل الجلاوزة، وأن تشاركهم كل شيء، حتى أمزجتهم، وأن تحترف الصبر، كما أنّ عليك أن تتعلّم فنون المداراة، وأن تكون ذا خبرةٍ في أنواع الشخصيّات، فليس الجميع سواسية، ولا كلّهم يفكّرون بنفس الطريقة.

هذا هو السجن، برجٌ لإطلالةٍ لا يمكن أن تُرى من أي مكانٍ آخر، تقييمٌ للماضي، واستشرافٌ للمستقبل، وتحديدٌ للمصير، وما لم يكن كذلك، فلا بد أنّه لا يعوّل عليه!

أمّا فطرتك، تلك التي جُبِلَت على الحريّة، فلا غرو أن

تحدّثها بالهروب، لستَ شيئاً كُتب عليه أن يموت هنا، وإنما عليك أن تحفر في الصخر، وأن لا يستسلم قلبك فيهبط إلى حيث أرادوا، عليه أن يبقى محلّقاً في السماء، ولا يرضخ للظروف.

هكذا كنت أحاول أن أقنع أحد زملائي بالهرب، كان يراني أركض في باحة السجن ضاماً يداي في صدري أو إلى الخلف، سألني ذات مرّة: لماذا تركض بهذه الطريقة؟ ولا أظنّ أنّ فطنته خانته لتوقّع الأمر، أفصحت له عن سرّي، لم يتفاجأ، بدا متسمّراً مثل خشبةٍ يأخذها ماء البحر إلى أين يشاء، كأنّه يسترخي، ولكن لماذا لا تهرب من داخل السجن؟ سألني مرّة أخرى، قلت إنّه أحد الخيارات، وأنّني اخترت مسجد العنبر لهذا الأمر، سأقصُّ قضبان النافذة بمنشار سأهرّبه، وسأخرج.

وكان زميلي هذا قد ساعدني بتسلق ظهره يوميّاً في الباحة لمراقبة ما يجري في الخارج، أعدادُ الشرطة، تحرّكاتهم، وكيف سأمرّ. كنت أُقنِعُه أن يهرب معي، إلّا أنّه كان يعتقد أنّه سيُحكم له بالبراءة، كنت أضحك من كلامه هذا، أقول له بلهجة لطيفة: «لا أحد يخرج براءة!»

لا بدّ أنّ الحريّة هي التطلع الأول لأيّ سجين، لذا فإنّ الهرب ومحاولة التحرّر مسألة فطريّة أيضاً، إنّما الظروف المحيطة هي التي تجعل السجين يائساً من الأمر، الثكنات والكاميرات والانتشار الأمني المكثف، الحيطان الشاهقة

والمتاريس! يبدأ السجن مثل صدمة، ثم يصير مثل الجرعات اليوميّة، ثم يصبح في داخلك، وإذا ما تسللت القيود إلى الداخل فهذا يعني أنك صرت سجيناً.

وفي لحظات التأمل الأولى، لحظات انكشاف الغطاء عن العين، يصبح السجن صومعة تأمُّل، فتذهَل، هذا هو الجانب الإيجابي في الأمر، فجأةً تراجع أخطاءك التي ارتكبتها منذ سنوات، مع نفسك وأهلك وأصدقائك والآخرين، يصبح الشريط واضحاً بعد أن كان ضبابياً قبل ذلك، فيعمل بشكلٍ جيّد!

كنت أحياناً أصل إلى قناعة، أنّ الأجيال بحاجة دائماً إلى السجن، لكي يتطوّر وعيها، وتبرأ من الاتكاليّة وتخرج من شرنقتها، تماماً مثلما تكون خلوة الأنبياء والأولياء والصالحين مع أنفسهم، تماماً مثلما تحثّ الكتب الأخلاقيّة على انتهاج هذه الآلية بين فترة وأخرى لتربية النفس، ليس هذا فقط، فقد كنت أقول في سرّي أنني عندما أصبح وزيراً للداخليّة في الحكومة المنتخبة فإنني سأخصّصُ سجناً لهذا الأمر، يشبه التجنيد الإجباري، فتمرّ الأجيال من هنا، لتعرف قيماً كثيرة، وتنتبه إلى النِعم التي تحيط بها.

هـذا عندما يكون السجين سليماً مـن آفـات النفس وصراعاتها وقوياً في حوار أحاديثها التي لا تنتهي، مؤمناً أنّ الظلم والعذاب وإن حلّا في حياته، فهما أمران نسبيان،

وفيهما حكمة، وإلا فإنّ السجن لكثيرين مثل انهيارٍ شامل، يبقى الإيمان عندهم شكلاً، أمّا قلوبهم فكافرة ناكرة ساخطة!

أمّا الهروب، فليس هروباً من هذا الأمر، إنما طاقة صنعها السجن نفسه، لكسر هذا الظلم الذي صار روتيناً في حياة الشعب.

كنت قد اتفقت مع أحد السجناء لتهريب بعض الأدوات التي أحتاجها، مقابل إعطائه هاتفاً، وصلتني المنشار، وصرت أشكّل في بالي خطّة الهرب، إلّا أنّ شيئاً آخر حدث!

(16)

خلال تواجدي في السجن، كان السجناء العسكريون من الجنائيين لا يحتكون بالمعتقلين السياسيين، إلا القليل منهم، ونحن كذلك أيضاً، فلم نكن نحتك بهم كثيراً، ولا نخالطهم، ونحاول تجنبهم.

ذات يوم شاهدت شابّاً في العشرين من عمره، كان يتحدث مع أحد الأصدقاء، وبدا عليه بعض التعب، لم أُعِر الأمر أيّ أهميّة في البداية، إلا أنّني سمعته بعد ذلك يتحدث عن رضا الغسرة، لم أتمالك نفسي، وأخذت أسترق السمع.

كان يقول أنّ رضا قد هرب، وأنّه الآن هنا لقضاء عقوبةٍ بسبب هذا الأمر، قهقهتُ بصوتٍ مرتفع عندما سمعت هذا الأمر، ودخل السرور إلى قلبي.

واصل هو حديثه، وذكر أنّ رضا خرج من البوابة الرئيسيّة لسجن الحوض الجاف بعد أن ارتدى ملابس أنيقة ونظارةً شمسيّة، وأنّ بينهما علاقة محبّة، مستغرباً كيف فعل ذلك به، قلت أنا ساخراً: إذا كنت تحبّه فعلاً فسوف تتمنّى له الحريّة، لاحقاً وصلتنا بعض الأخبار حول مهرب رضا، وأنّه خرج بعباءةٍ نسائيّة!

بدأ هذا العسكري المعتقل يتردّد للجلوس معنا، وحدث أن وصلته رسالة شفهيّة من أخ رضا يعتذر له عمّا حصل، تفاجأتُ من ذلك، وعرفت بعدها أنّه كان يتساعد مع السجناء كثيراً، على عكس بقيّة المرتزقة!

بعد أسبوع، تمّ الإفـراج عنه، وقد لقيته بعد فترةٍ أثناء زيارتي لعيادة سجن الحوض الجاف، كان قد عاد لوظيفته مرّةً أخرى، يومها، كان معه عددٌ من سجناء منطقتي، عندما رآني، بدأ يصرخ: «عكراوي.. كيف حالك؟» قلت له: «الحمد لله، اعتنِ بـ«العكاروة» الذين معك».

ذات ليلة رمضانيّة مقمرة، تشبه في حسنها إمامنا الحسن المجتبى عليه السلام، فقد كانت ليلة ميلاده، كنت أتأمل طلعة القمر في احدى زوايا باحة السجن بعد الانتهاء من لعب كرة القدم، وأستمع لصوت مياه البحر الملاصق للسجن، الروح تتوق للحريّة، إلّا أنّ هذا السجن يكبّلها.

التفتُّ إلى سجينٍ باكستاني الجنسيّة يجلس عند أحد الحيطان مسنداً ظهره إلى الجدار وينظر للسماء وكأنّه ينتظر شيئاً، للوهلة الأولى لم أتعرّف عليه، وأخذت أتذكّر أين رأيته إلا أنّني لم أفلح في ذلك، ذهبت لمصافحته، قلت له إني أشعر أني رأيته من قبل ولكن لا أدري أين ومتى، سألته في أي قسمٍ كان يعمل، أجابني بأنّه يعمل في الأكاديميّة الملكيّة للشرطةً بقسم المعسكر، تذكّرته بعد أن قال ذلك. سألته: «هل أنت مجيد؟» قال: «نعم».

عندها، سألني من أكـون، أفصحت له عن اسمي وعن القسم الذي كنت أعمل فيه، وقف مندهشاً عندما عرفني، وصافحني بحرارة.

تبادلت معه التحيّات وبعض الأخبار، انزعج عندما عرف قضيّتي، وأبدى لي تألمه من ذلك، حاولت تهدئته، وقلت له إنني مطمئن جداً ومعنوياتي عالية، عرفت حينها أنّه اعتقل بتهمة السرقة من المخازن الفرعيّة بالأكاديميّة، وقد قضى حكمه مدّة عامين في سجن جو، وتم جلبه إلى هنا من أجل ترحيله إلى بلاده. سألته مع من كان من المعتقلين السياسيين الذين كان معهم في جو، فحدثني عن الشيخ أبي كميل، الذي أُعجِب بأخلاقه العالية.

لا جـدران تشبه جـدران الزنازين، فهي تحمل ذكريات المعتقلين الذين مـروّا من هنا، وكانوا يتطلعون للعيش بسلام مثل غيرهم، تنظر لكلماتهم المحفورة فتطلّ أطيافهم مثل أشباح تملأ المكان، تقرأها مرّةً، وثانية، وثالثة، فتسمع أحاديثهم وأشواقهم وحنينهم الداخلي، تتسائل ما الذي حدث لهم، وكيف كانوا يقضون وقتهم.

كان سجن أسري واحداً من سجون بلدي الذي ضمّ الكثير من المعتقلين السياسيين، وقد قتل فيه عدد من الشهداء منهم الشهيد زكريا العشيري والشهيد حسن جاسم، وكانت جدرانه تحمل الكثير من الذكريات، حتى تلك التي لم تكتب، فقد كانت تسيح مثل ماءٍ يتقاطر، تبلل الجدران وتبلل أرواحنا

معها، نصبح ملزمين بسببها أن نفكر في أنفسنا وفي من مرّوا من هنا.

يمتلئ الجدار، كأنّ السجن مداداً لكلمات الأسرى، أقرأ عبارة «يا حسين» فتشتعل الجمرة التي لا تبرد أبداً، كلمات مثل «حتى في بطن الحوت هناك أمل» لا تدعك تواجه مصيراً بائساً، فالأمل هنا سيُنجيك من الغرق، هذا بالضبط ما يجعل المهمّة مثل مسؤولية متوارثة، بين سجناء عبروا هذا السجن وبين سجناء لازالوا يعبرون!

على حائط زنزانتي، صارت يداي تكتب بشكل ميكانيكي لا أملكه، تلبيةً لرغبةٍ ملحّةٍ ظهرت للتو، «صامدون كالجبال»، كان هذا أقصى ما يملكه سجين سياسي يتطلع إلى أن تخرج بلاده من عنق الزجاجة، حرّة مستقلة يحظى مواطنوها بالعيش الكريم، كان تعبيراً لا تصمد أمامه كل أسلحة العساكر التي تحمي النظام الدكتاتوري الحاقد، تماماً مثل سلاح قاتل يهزمها، يضعضع صفوفها، ويجعلها يائسة من النصر، فالنصر لنا ما دمنا كالجبال!

أخذت أتأمل العبارة، فلم أجدها كافية لإرضاء تلك الرغبة الجامحة، كان نداء آخر يحاول إرواء غليله، ويمرّ بداخلي مثل مصلٍ حقنت به الآن، كتبت عندها، بما لا يدع مجالاً للشك في العبارة الأولى، وبما يرضي ضميري الوطني، ونصرةً لكلّ شهيدٍ تضرّج بدمه بفعل فاعل، وبأمرِ آمر، وتحت مسؤوليّة تراتبيّة معروفة، كتبت بلا تردّد: «يسقط حمد».

(17)

لا شيء يشبه الحريّة، حتى الفلاسفة والمفكرين والكتاب لم يستطيعوا التوصل إلى كنهها الحقيقي، يكفي أنّ تعريفاتها كثيرة، ضاقت واتسعت، ولم تتفق على شيءٍ واحد!

إنّ حلم الفقير هو الغنى، وحلم المريض هو العافية، وحلم الغريب هو الوطن، ولا أحد من هؤلاء وغيرهم يمكنه أن يتخيّل حلم الحريّة، كلُّ أصناف الناس الأحرار الذين يعيشون يوميّاتهم برتابة، يشربون قهوتهم قبل خروجهم في الصباح إلى أعمالهم، يعودون ظهراً أو في المساء، يستقبلون ضحكات أبنائهم بقبلات الاشتياق، يسألون زوجاتهم عن العشاء، ويتسامرون مع أصدقائهم بأحاديث شتى، كل أولائك وأصناف أخرى من الناس الذين لا يتشابهون في يومياتهم لا يعرفون شيئاً عن الحريّة، وحدهم الأسارى يحلمون بها بذائقةٍ أخرى، ويبدو والله العالم، أنّ السجين في سجنه، يمسك بتفاصيل الحياة في الخارج ويتذوّقها أكثر من أيّ أحدٍ آخر، يعيش لحظة الحريّة وكأنّها لحظة تلك التفاصيل التي تجاهلها طوال سنين حياته.

كانت الحريّة بالنسبة لي منذ اليوم الأول هي الأمل، خصوصاً وأنّ القضيّة التي اتهمت فيها ستبقيني في السجن لسنواتٍ طويلة، فسعيت إلى تخليص نفسي بنفسي، فصرت أسرح مفكراً في كيفيّة ذلك، حتى أفصحت بنيّتي للمقرّبين منّي داخل السجن، فأخذ كُلُّ واحدٍ منهم يقترح عليّ طريقةً لذلك، أحدهم اقترح عليّ الهروب من نافذة دورة مياه عيادة القلعة، وتسلّق السور والركض باتجاه أزقّة المنامة، ولمّا تمارضت وذهبت إلى هناك، تفاجأتُ بأنّ النافذة لا يمكن فتحها، فتلاشى حلمي ورجعت خائباً.

عُدتُ مرّةً أخرى لتفكيري الهائم، علّني أصل لطريقةٍ تخلّصني من هذا السجن المظلم، فتوصّلتُ إلى ثلاث طرق حول ذلك، إما الهروب من مستشفى السلمانيّة والاتفاق مع شخصٍ من الخارج ليتسلّمني بسيارته، أو الهروب بإلقاء نفسي من الشاحنة التي تقلّني إلى لمستشفى خلال مرورها بمنطقة الماحوز، أو الهروب من السجن وهي الخطة الأخيرة والأصعب بين تلك الخطط، ولم أمانع بالعمل عليها إذا لم تنجح الخطط البديلة.

بدأت بالعمل على الخطّة الأولى، فنسّقتُ مع أحد الأصدقاء لكي يستلمني من خارج السلمانيّة، وسعيتُ للحصول على موعدٍ هناك، فأفلحتُ في الحصول على موعد، وذلك لخلع اللوزتين بعد أنْ نجحت في إقناع الطبيب

بأنّني أعاني من التهاباتٍ حادّة ومستمرة بسببها، إلّا أنّ صديقي اعتُقِل قبل هذا الموعد بسبب نشاطه الميداني في الثورة.

لذلك، انتقلتُ إلى الخطّة الثانية، وبدأتُ بالعمل عليها، ولم أستبعد الخطّة الأولى والتنسيق مع صديقٍ آخر، وبينما كنت أمرّ بمشاعر الحسرة لعدم وجودي بين أهل قريتي، حيث كانت تصلني الأخبار حينها حول حصارها المشدّد، أخبرت الشرطي المناوب أنّني أريد الذهاب إلى العيادة فوراً لأنّني أعاني من آلامٍ في جسمي، طلب منّي الانتظار لتنسيق الأمر مع الباص، حان موعد العشاء فبدأنا نأكل، كنت أضع لقمةً وأخرى وتراودني أفكارٌ متناقضة، خوفٌ تتلوه شجاعة، ويأسٌ يتقاتل مع الأمل، رأسي يضجّ بسيناريوهات ترتسم لوحدها في عقلي، إلى أين سأذهب؟ ماذا لو أمسكوا بي؟ ماذا لو أطلقوا عليّ النار؟

لم تمرّ هنيهة حتّى ناداني الشرطي للذهاب إلى المستشفى، قال لي رفاق السجن أثناء انسحابي: «أكمل طعامك أولاً». استحفظتهم الله، وأشرتُ لهم ملوّحاً، نسألكم الدعاء، قلّبت طرفي عليهم واحداً واحداً، لا أدري فلعل الأمر ينجح هذه المرّة فلا أراهم، فما لم تتزود عيناي بهؤلاء الإخوة الذين سيحاكم بعضهم لسنوات قادمة فإنّ ضمير الذاكرة سيبقى يؤنبني دائماً.

خرجتُ من العنبر وأنا أتلو همسًا آية الكرسي، واثق

اليقين، أنّ الله لا يخيّب رجاء من رجاه، ففي أحلك الظروف والمنعطفات يسبب سبباً لا يخطر على البال، فيأتي بطوق النجاة.

عندما وصلنا إلى عيادة سجن الحوض الجاف، التقيتُ بابن قريتي المعتقل أبي حسين، وابن سترة المعتقل إبراهيم عبد النبي، صافحتهما وتبادلت الأحاديث مع أبي حسين، اعترض الشرطي لكنّه بعد جدال تراجع، مرّت دقائق حتى دخلت على الطبيب، سألني ما بي، أجبته أنّ آلاماً تنتشر في كلّ جسمي وتصيبني بالتعب الشديد، استفسر عن بعض التفاصيل وسألني عن حالتي أكثر، هل أنا مصاب بالسكر، هل لديّ نقص في الخميرة، وما إلى ذلك، وصف لي بعض الأدوية فطالبته بتحويلي إلى مستشفى السلمانيّة، رفض في البداية ثم قال إنّه سيحولني إلى عيادة القلعة، رفضتُ وأصررت على تحويلي إلى مستشفى السلمانيّة، إلا أنّه لم يوافق.

أمسك الشرطي الباكستاني بذراعي وخرجنا، بينما يقول إنّني لست مصاباً بشيء، وأنّني أدّعي ذلك، قلت له «إن شاء الله يصيبك ما يصيبني»، فأخذ يضحك.

بعد أن ركبنا الباص مرّةً أخرى، حاول الشرطي الجلوس بجانبي فزاحمته حتى جلس أمامي، بدأتُ بتدليك رقبته، أعجبه الأمر فطلب مني تدليك رأسه، لم أحر جواباً، فواصلت تدليك رأسه إلى أن فتحت النافذة التي أجلس بجانبها قليلاً

بحجّة التهوئة، وكانت لحسن الحظ من دون سياج حديدي كما هو متعارف في الباصات التي تنقل المعتقلين، تفاجأتُ عند وصولنا إلى منطقة الماحوز بوجود نقطة التفتيش الدائمة، كنت قد نسيت وجودها رغم أنّني كثير المرور بهذا الطريق، أخذتُ أتلفّت، ولوهلةٍ تخيّلتُ أنّ الأمر قد حدث، وأنّني رميتُ بنفسي من النافذة، حاولت أن أهمّ بالأمر لكنَّ شيئاً ما في رجلي عطلّها عن الحركة، كان الباص مسرعاً يريد اللحاق بإشارة المرور الخضراء، تراجعت عن الأمر لخوفٍ ملأ صدري، وبقيت مسمّراً في مقعدي، مذهولاً بأضواء الشارع، وكأنَّ شيئاً قد فاتني ولا يمكنني تعويضه!

وصلنا إلى وجهتنا في الساعة الثامنة مساءً، كانت عيادة القلعة هادئة، تماماً كما تكون عليه العيادات عندما تخلو من المرضى، أخبرونا أنّ الطبيب سيصل في حدود الساعة التاسعة، فأخذ الشرطي الباكستاني يفاوضني على العودة إلى السجن لأنّ التاسعة هي موعد انتهاء عمله، وأنّه سيطلب من الشرطي الآخر أن يأتي بي إلى العيادة في صباح اليوم التالي، كنت حينها ألوم نفسي على تردّدي في رمي نفسي من النافذة، سايرته في مفاوضاته، ورفضت العودة بدايةً بحجّة المرض الشديد، ثم وافقتُ بعدها بينما أخفي نيّةَ محاولة الهروب التي أصبحت بدل الفرصة فرصتين، فرصة واحدةَ أثناء العودة الآن، وفرصة أخرى في الصباح.

عندما ركبنا الباص، عدت لتدليك رأس الشرطي المرافق، فيما تراقب عيناي سير الباص في الشوارع الساكنة، انعكاس الأضواء على نوافذ الباص واختفائها وظهورها بسرعة تجعلني مرتبكاً، صوت المحرّك يعلو وينخفض فيشوش الأفكار التي تدور في رأسي، أحاول لملمة نفسي، وحش الخوف يطلُّ من مكانٍ مظلم في عقلي، هذا البائس الذي يظل ينهش في نفوس أصحاب العزائم حتى ينحيهم عن الطريق، لوهلةٍ بدى متراجعاً شيئاً فشيئاً، كمن يترك حلبة الصراع لمنافسه مستسلماً، أخذ حينها يتسلّل إلى قلبي شيءٌ من اللامبالاة، تماماً مثل ينبوع انفجر وبدأ يروي أرضاً جدباء، أعلم الآن على الأقل أنَّ شيئاً كهذا لا يمكنه أن يبزغ في القلب لوحده، بل يقذفه لطف الله فيه، وبينما كانت الإشارة الضوئية المحاذية لنقطة التفتيش في منطقة الماحوز تضيء باللون الأصفر لكي يستعد السائق للانطلاق، كنت أنا وبحركة سريعة قد فتحت النافذة ورميت بجسدي إلى الحرية، تشبث الشرطي الذي تفاجأ من حركتي بأطراف رجلي، وأخذ يصرخ، بدا أفراد الشرطة في نقطة التفتيش وكأن على رؤوسهم الطير لا يعرفون كيف يتصرفون، رفع أحدهم سلاحه نحوي، حرّرتُ نفسي وأخذتُ أحلّقُ في شوارع المدينة التي سأختبئ فيها، أخذوا يهرولون خلفي، إلّا أنّ الحريّة كان تدعوني إليها.

كانت ليلة جمعة، صوتٌ حزينٌ يقرأ دعاء كميل ويمسح آلام المدينة الكئيبة، توقفت الشرطة عن اللحاق بي، وأخذتُ

أجري في الأزقة إلى أن رأيت أحد المارّة، كان صوت قارئ الدعاء يُسمع في الأرجاء: «اللهم ومن أرادني بسوء فأرده، ومن كادني فكده...»، رآني مرتبكاً والقيد في يدي، كان يحمل طفلةً بملامح بريئة على ذراعه اليسرى، توقفتُ أمامه، وصدري يكاد ينفجر من شدة اللهاث. قلت له: «أريد الاختباء لفترة مؤقتة»، عرف قصتي، فأشار لي بالصعود إلى الطابق الثالث من مبنى أمامنا، ذهبت مسرعاً، عندما وصلت ألقيت بنفسي على الأرض من شدّة التعب، كانت مشاعري مختلطة، بين فرحة الحريّة وقلق المصير الذي ينتظرني، شربت الكثير من الماء، إلى أن جاء صاحب الشقة، ألقى عليّ التحيّة فأمرته أن يُخرِج هاتفه إلى الخارج، غاب من أمامي وعاد سريعاً، سألني عن قصتي، فذكرت له أنّني أحد المعتقلين السياسيين وقد تمكنت من الهرب بالقرب من نقطة التفتيش، بدا مبهوراً وصار يستمع إليّ، قلت له أنني تركت نعالي في الطريق، وأخشى أن تتعقب الكلاب البوليسية رائحة خطواتي فتصل إلى هنا، طلبت منه أن يأخذ علبة من الفلفل الأسود ويرشها على طول الشوارع والأزقة التي مررت بها، وشرحت له المسار الذي سلكته، قلت له إنّ الكلاب بهذه الطريقة تصاب بالهلوسة، قال إنه سيخرج لتوّه، وقبل ذهابه، استدركت حديثي وأخبرته أنه لدي أحد الأصدقاء من نفس المنطقة، طلبت منه أن يتصل به ويرتب معه موعداً عاجلاً للمجيء دون أن يخبره بالأمر، نبهته أنّ الهواتف ستكون مراقبة، عاد

بعد فترة وأخبرني بأنّه نفذ الأمر وأنّ صديقي سيصل حالاً، مرّت دقائق إلى أن وصل صديقي، أصيب بالدهشة عندما رآني، تعانقنا بقوّة وتبادلنا التحيّات، اتفقنا أن يجد لي مكاناً آمناً للاختباء، لم يدم الأمر سوى ساعة، حتى جاءني بسيارته ونقلني إلى منزل أحد أصدقائه. ليلتها، وبينما كنت وأصدقائي نحتفل بقطع سلاسل «الهفكري» الذي يقيّد يداي، كانت قوات المرتزقة تطوّق المنطقة وتنتشر في شوارعها بحثاً عنّي، أمّا أنا، فقد نلت الحرية!

(18)

في اليوم التالي للحرية، استيقظت صباحاً وكانت يداي حينها لا تزالان مقيّدتان بـ«الهفكري» المقطوع من الوسط، أعد صديق صديقي لنا فطوراً حضره الوطن، كلّما تضاحكنا معاً ربّتَ على كتفي فَرِحاً، قال أنّ الأراضي التي تقام عليها سجون الظالمين هي أراضٍ خارجة عن جغرافيته، وأنّه مهما حدث، فسوف يبقى يفخر بالمعتقلين المناضلين!

طلبتُ من صاحبي الذي بتُّ في بيت صديقه أن يذهب إلى منطقة النبيه صالح لإخبار أحد الأصدقاء بهروبي وتهيئة مكان لي، ذهب وأتمّ الأمر فأنطلقنا إلى هناك وسط الأوضاع الأمنيّة والحصار الخانق، وصلت إلى هناك والتقيتُ بصديقي الذي أخبرني أنّه لم يتفاجأ بالخبر لأنه كان ينتظر هذا الأمر منذ مدّة، أتى صديقٌ آخر كنت قد طلبت منه شراء بعض الملابس وهاتف نقال لي، وبسبب حجمها الكبير، عاد لاستبدال الملابس مرّة أخرى!

في تلك اللحظات، شعرت بالفخر والامتنان أنّ أصدقاءً كأصدقائي كانوا يحيطون بي ويسعون في خدمتي ويقدّرون

ظروفي رغم الخطر الذي كان يتهددهم، واليوم، لا أعرف كيف أردّ الجميل لهم، ولا بدّ أن يأتي يوم وأفعل ذلك.

اليوم، تعلو ابتسامة عريضة شفتيّ عندما أتذكر تلك اللحظات، كم كان الأصدقاء بلسماً على هذه الروح التائهة! أعرف قصصاً كثيرة حول الخيانات في الصداقات، خصوصاً تلك الكارتونيّة منها، والتي لم تمرّ بأي اختبارات، سمعت عن الأصدقاء أصحاب المصالح، عن الحسد الذي يشعل قلوب المرضى، عن الإيقاع بين الإخوة، عن التعامل مع العدو من أجل الكيد بالأصدقاء، أتذكر كل هذه القصص وكأنني مررت بالتجربة الأمثل، أصدقاء مثاليون طيبون وأوفياء أخلصوا للمحبة وتعاونوا على البرّ وجاهدوا في سبيل الله.

تواصلت مع أحد الإخوة المهجّرين في الخارج، طلب مني تهيئة نفسي للخروج من البحرين وفي الحال، قلت له إنّه في حال لم يكن الأمر مهماً، فلا حاجة له، إلّا أنّه قال لي بأنّ هناك أعمال عالقة للاهتمام بها، فوافقتُ على طلبه، فقام هو بتنسيق الأمر.

يومها، كنت أتابع الأخبار عبر موقع التواصل الاجتماعي «تويتر»، محاطاً بكرم صديقي، ممتلئاً بمشاعر الزهو، «وزارة الداخليّة» لم تعلن نبأ هروبي حتّى الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم، في هذا الوقت بالتحديد أعلن أحد الضباط نبأ هروبي فأثار تكهنات الناس، بين من يقول إنّها مسرحيّة

معتادة، ومن يقول إنه تمت تصفيتي، وآخر يرى في الأمر غموضًا على أقل التقادير!

وسط كل هذه الأخبار والتداعيات، وصلني خبرٌ آخر عكّر فرحة الحريّة الوليدة، أهلي أشبه ما يكونون في مأتم، والناس تتوافد إلى منزلنا لمواساتهم، وهم يميلون إلى الاعتقاد أنّه تمت تصفيتي.

لم تمر فترة، حتى وصلني خبر اعتقال والدي، وهو الأمر الذي أدخلني في حالة مزاجية سيئة، وقد تبين بعد ذلك أنّ الأمر مجرّد تحقيق أبلغوا خلاله والـدي بما حدث، على الرغم من أنّني لم أستبعد اعتقاله أو اعتقال أحدٍ من أهلي، فهذا النظام فاقدٌ لكل الأخلاق والقيم!

يحدث ما يحدث في وطني، والبعض قد لا يصدق ما يرى، بسبب الالتباسات الكثيرة التي تمر بها الساحة، لكنّ شيئاً لا ينفي وقوعها من الطرفين، فشبابنا شجعان وأبطال، ومرتزقة النظام متوحشون وإرهابيون ويفعلون ما يحلو لهم، لذا لا شيء يمكن استبعاده.

ولأُطَمئِن أهلي، تواصلت مع أحد الأصدقاء ليبعث زوجته ومعها هاتفه الخاص إلى منزلنا، تحدثت عبره مع أمّي وطمأنتها وبعثتُ لها صورتي، أبلغتها بأنني لن أُسلّم نفسي مهما حصل، وسألتها الدعاء، هذا الأخير الذي ظل يظلّلني أينما ذهبت، فدعاؤها وملامح وجهها النديّ ظلّا يحرساني كطفل، ومهما كبرت، سأبقى كذلك.

(19)

بعد أيام، كنت على موعد مع بِحار وطني، تلك التي لو خاض الشعب لججها ألف مرّة، ما حاد عن مطالبه المحقة، سوف أكون على موعد معها لتأخذني إلى الضفة الأخرى بعيداً عن بلدي، لترميني بعيداً مثل جثّةٍ ستحيا من جديد في أماكن ليست هنا.

خلال تواجدي في قريةٍ قريبة من المرفأ الذي كنت سأنطلق منه نحو غربتي، حدث أن أيقظني صديقي من نومي في الصباح الباكر ليخبرني بأنّ القوات تحاصر المكان، نظرت من النافذة وإذا بالمركبات تملأ المكان، تسمّرتُ مكاني ولم أعرف ماذا أفعل، وبدأت الدنيا تغيم في عيني، صُدمتُ كثيراً من ذلك لأنّني كنت حذراً جدّاً في تحركاتي، وعندما طال الأمر ولم تدخل القوات، عرفنا حينها أنّها تداهم مخبأً صغيراً لمصادرة بعض إطارات السيارات التي تحرق خلال الاحتجاجات، عاودت النوم قلقاً، يقلّبني ألف هم، متشبثاً بألف أمل، ومتعلقاً برحمة الله.

في المساء، خرجت في شوارع بلدي، أقلّب طرفي في

نخيله المنتصبة، وبيوتات القرى الحزينة، أزوّد قلبي بنسائم الشمال العليلة، لا أجمل من شوارع الأوطان في المساءات، عندما تبدأ بالخلوّ من الزحام، وتبدو ناعسة. سأفتقدك أيّها البلد الجميل! سأشتاق إلى أجمل اللحظات، حيث لا وطن سيعوضني عنك، سأعود يوماً لأمانك، ذلك الشيء الذي لا يوفره سوى حضنك.

شعرت بالغربة قبل أوانها، مثل من يتأهب لشيء يعرف أنه سيقع، تكاثر الحزن في قلبي وأخفت آماقي دموعاً غزيرة أمسك وقوعَها الوطن، فلا شيء يجعله كئيباً أكثر من هذا، عندما يبكي أبناؤه عليه!

عندما عدتُّ لمأواي، استأذنت صديقي للنوم، وقبل أن أخلد إليه، فتحت القرآن الكريم لأُمسِك بتلابيب قلبي الضائع، «ألا بذكر الله تطمئنُ القلوب»، حينها، وقعت عيناي على الآية الكريمة ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]، كانت هذه رسائل الملكوت إلى قلبي، شعرت بالدفئ، واستسلمت للنوم في محضر الوجود!

وسط البحر، كانت الأمواج تلاطم شطآن قلبي، وتترك فيه بعضًا من زبدها، ذلك الذي يذهب جفاء، شيء من الترقب والقلق يروح ويأتي، تماماً مثل وميض الإشارات التي توضع

(1) سورة النحل، آية 110.

في البحر، زرقة الماء تمتزج بخضرة داكنة، كأنّ البحر هنا بحرين، مالح مثل وجوه الأجداد الطيبين، وعذب مثل قلوبهم، له هيبة المحيطات المترامية، ولكن لا ظلمات فيه!

يبدو القارب مسرعاً نحو غربتي، أكاد أقول للصيّاد أن يبطئ، حتى لا تغيب أرض وطني من نظري مرّة واحدة، أن يجعل المشهد بطيئاً جداً، بحيث يسقط وطني في الماء، وأضطر حينها للغوص فيه لإخراجه، أن أخرجه فأتفاجأ أنّ الجزء الأكبر قد ذاب مثل قطعة سكر، وبقي القليل منه، فلا يسعفني الحظّ بتذكر شكل الجزء الذائب. يا لك من وطنٍ قاس، يخرج أبناؤك تاركين لك، خوفاً يترقبون، فلا ترمي لهم بطوق عودة!

قاطع صوت الصيّاد أفكاري، قال إنّ منسوب المياه مرتفع، ويبدو أنّه ليس من المناسب المواصلة، سألني عن رأيي بالأمر، قلت له إنّ رأيه هو الأهم فهذا عمله وهو أخبر بما هو الأصلح، كانت معالم وطني قد غابت حينها، لكنّها عادت للظهور بشكلٍ غائم عندما قرر الصياد العودة، اتفقنا أن نعود على أن نحاول بعد يوم أو يومين.

هيأ الصياد لي مكاناً للمكوث إلى حين يكون الجو ملائماً للإبحار مجدداً، وكنت أنا قد تنفست الصعداء عندما عدت لموطني، كانت المحاولة الأولى وكأن روحي ستفارق بدنها.

في المرة الثانية عدنا بسبب مناورات عسكريّة في المياه الإقليميّة لإيران، تلقينا اتصالاً من صديقي الذي نسق لنا الأمر بينما قاربنا يشق عباب البحر، كان عتابي مع الوطن في كلّ مرّة وكأنّه يؤثر في قلبه، أراه يعصره وكأنّه يتقطع، فيجذبني إليه عائداً، ولكن من أجل الرحيل مجدداً!

مرّت الأيام وكأنّها رمشة عين، فهاجرت، مسرع الخطى نحو غربتي، لم أرَ في طريقي سوى الدلافين والأسماك تتقافز، السماء من خلفها مثل لوحةٍ مائيّة رائبة، كيف يمكن للأسماك أن تعيش خارج الماء؟

هاجرتُ يا وطني، ولم يودعني أحد، كانت تحايا الأسماك والدلافين والماء المالح وأصوات النوارس وحدها رفيقتي في رحلة مغادرتي تلك، لا أعلم إن كنت أنت مَن نسّق الأمر، لا أعتقد، فحزنك خارج عن كل البروتوكولات، مثل من يكبت الهمّ في صدره، ولا يعرف ماذا يفعل في لحظات الغياب، فتغلبه الدموع حينما تمرّ به أطياف الغائبين!

وَطَنٌ عَكِر

هاجرتُ يا وطني، ولم يودعني أحد، كانت تحايا الأسماك والدلافين والماء المالح وأصوات النوارس وحدها رفيقتي في رحلة مغادرتي تلك، لا أعلم إن كنت أنت مَن نسّق الأمر، لا أعتقد، فحزنك خارج عن كل البروتوكولات، مثل من يكبت الهمّ في صدره، ولا يعرف ماذا يفعل في لحظات الغياب، فتغلبه الدموع حينما تمرّ به أطياف الغائبين!

مرآة البحرين
Bahrain Mirror
ISBN 978 - 9953 - 0 - 5168 - 0
9 789953 051680 >